السرُّ الكبير وراء كربلا

مشروع الـرِّدّة السفيانـي ــ الرُّومي

صفحة الناشر

السرُّ الكبير وراء كربلا

مشروع الـرِّدّة السفيانـي ــ الرُّومي

جعفر المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ انفعني بما علّمتني ، واجعله لي ، ولا تجعله عليّ

الفهرســت الموضوعي

المقدمة ٧

الفصل الأول : الشام ١٥

الفصل الثاني : ماضي الأيام الآتية ٢٥

الفصل الثالث : سركون والسركونيون ٣٩

الفصل الرابع : الوضع السياسي للشام في فترة البحث ٥١

الفصل الخامس : من معاوية إلى يزيد ٦١

الفصل السادس : معاوية أميراً وخليفةً ٧١

الفصل السابع : يزيد خليفةً ٨١

الفصل الثامن : بين السّلّة والذلة ٩٩

الفصل التاسع : السّرّ الكبير ١٢١

ـــ نتيجةٌ ومزيد ١٤١

ـــ مادة إضافيّةٌ على سيرة منصور بن سرجون / القديس يوحنا الدمشقي .

_____

المقدمــة

(١)

كنت قبل بضع سنين قد صرفتُ جهدي إلى كتابة قصةٍ أقرب مايمكن إلى الحقيقة لواقعة " كربلا " ، بحسب ما أدّاني إليه البحث والنظر. ابتغاء أن أُحرّر القصّة مما علق بها ممّا هو ليس منها في الحقيقة . وإنما هو ممّا أضافه الناس إليها من عندهم ، تعبيراً عن تأثّرهم القوي الدائم بها .

ذلك أنّ من طبائع البشر، أنهم حين يتأثّرون بحدثٍ أو بشخصٍ ، قد تراهم يُراكمون على أُحدوثته الحقيقية ، أو على الوقائع الثابتة للحدث ، من مخيالهم مايُسوغ ويُعزّز ويُقوّي انفعالهم به أو موقفهم منها . الأمر الذي قد يؤدّي إلى بناء قصةٍ جديدةٍ مصنوعةٍ ، بعيدة بدرجةٍ ما عن الأصيلة . لكنها بذلك قد تستولدُ لدى الباحث ، الذي يعنيه الأمر، إشكاليّةً بحثٍ جديدة ، عملُها إعادة بناء القصّة الأصيلة ، بنحوٍ تكون بريئة ممّا أضافه المصنوعُ من مخياله. وكانت نتيجة عملي على مثل هذه الإشكاليّة ، فيما يخصُّ واقعة "كربلا" ، كتابي السّائر *كربلا إليكم الحقيقة* ، الذي استقبله القُرّاء استقبالاً حسناً ، ملأ نفسي غبطةً وحبوراً .

وإنْ أنسَ فلا أنسى يوم أرسلتْ لي إحدى مؤسسات العتبة الحسينيّة المُقدّسة في "كربلا" صورةً لجهازٍ تلفازي كبير، منصوبٍ أعلى مدخل القاعة التي تشرّفت بمرقد سيّد الشهداء(ع) ، تُظهرني مُتحدّثاً في النسخة المنطوقة لكتابي. وعرفتُ فيما بعد أنها بقيتْ تُبثُّ مدّة على الزّائرين في المواسم. ذلك تشريفٌ غير مسبوق لكتاب . ولا يُحمدُ إلا الله تعالى .

والحقيقةُ أنني كنتُ ، وأنا أخطُّ الكتاب ، شديدَ التخوّف من ارتكاس الجمهور على نتيجة عملي . لطول إلفه بما بعضه عندي غير صحيح ، حتى بات جزءاً من ثقافته . ثم أنني أعرف ماعاناه غير واحدٍ من أفاضل العلماء من قبلي ، بسبب نقدهم لبعض ما قد زُجّ زجّـاً في الشّعائر الحسينيّة الإحيائيّة ، من لدمٍ للصدور، وضربٍ للظهور بالسلاسل المعدن ، وتجريحٍ للرؤوس بالآلات الحادّة ...الخ. فكيف وأنا ، فيما أخطّه من كتابي ، قد أُخضعُ للبحث والنظر بعضَ ماهو عند أكثر الناس بمثابة وقائع ثابتة لا مِراء فيها، لطُول ما تُليت على أسماعهم من على المنابر صباحَ مساءَ .

(٢)

لكنّ الترحيب الكريم ، غير المَشوب بنأمة شكوى أو بنفثة اعتراض ، الذي لقيه كتابي ، مع أنه ضربَ ، بالتجاهل

على الأقلّ ، مشهديّات لطالما اعتُبرت أساسيّة في البطولات الكربلائيّة ، ــ قد بعثني إلى أن أغوص فيما هو أعمقُ من مجرّد الحكاية.طارحاً أسئلةً كنتُ قد اجتنبتُها في *كربلا إليكم الحقيقة* . لأنّ غرضي هناك كان وصفيّاً بحتاً. غايته أن يروي ، روايةً فقط ، ما الذي حصل بالفعل ، دون أن يطرح أسئلةً تدورُ على الخلفيّات الخفيّة الكامنة وراء الأحداث ، أو على المقاصد والحوافز والمُحرّكات لدى الذين شاركوا بدرجةٍ أو بغيرها في صنعها. سواءٌ كانوا من اللاعبين العلنيين على المسرح الكبير، الممتد من "المدينة" إلى "دمشق" ، أم من المحرّكين للخيوط من وراء الستار في هذه الأخيرة خصوصاً . وليس وجود هذا الفريق الخفيّ فرضيّةً نابعةً من طبيعة العمل السياسي ، وإنْ تكُن إجمالاً فرضيةً صحيحة . دائماً كان للعمل السياسي وجهٌ وقفا. المؤرخ الـرّاوي ليس يرى سـوى الأوّل من الوجهين. بل إن أعمالَ ذلك الفريق،اللاعب وراء الستار، أمرٌ ثابتٌ وجزءٌ أساسي من هُويّة هذا الكتاب. ونحن إنما رمينا من تعجيل الإلماح إليه في المقدّمة إلى تحريك ذهن القارئ باتجاهه. على سبيل تحضيره لإحدى أهمّ الاشكاليّات التفصيلية في الكتاب. وذلك ومثله من الوظائف الأساسيّة لِما يحرص القارئ الحصيف على الوقوف عليه في المقدّمة التي يضعها المصنّف لكتابه .

فمن هذا البيان نعرفُ أنّ عملنا في هذا الكتاب مُكملٌ ومُتمِّمٌ، إن شاء الله ، لِما بدأناه في *كربلا إليكم الحقيقة*. هناك عملنا على بيان ووصف ما نرى أنه قد حصل بالفعل ، ابتداءً من ٢٨ رجب سنة ٦٠ هـ ، تاريخ الخروج ذي المعاني للحسين (ع) من "المدينة" ، متجهاً إلى "مكة" ، ثم منها بعد بضع أشهر إلى "الكوفة" ، لكنّه انتهى في ساحة "كربلا" .

أمّا هاهنا ، فإنّنا سنطرح الأسئلة النقديّة التي تدور على الحوافز والأسباب والغايات التي رمى إليها كلّ الذين ساهموا مساهمةً أساسيّةً ما ، بحيث آلت الأُمور مآلها الفظيع على صعيد "كربلا" ، في بضع ساعاتٍ من نهار العاشر من شهر المُحرّم سنة ٦١ هـ .

مشكلةُ الباحث في هذا المطلب أنه يعملُ خارج النّصّ . هناك تكمنُ هناك الحوافز والغايات عند البشر . حيث لا سبيل إلى قراءتها إلا نأمةً من هنا ، أو إشارةً من هناك ، أو نصاً مقطوعاً عن سياقه من هنالك . ثم ليس على الباحث إلا أن يُلمّ بأكبر عددٍ منها ، عبر قراءاتٍ واسعة . فإذا هو نجح في تركيبها في قصّة ، تحكي ماكان قد حصل بالفعل بنحوٍ غير منقوص ، يكون قد فاز بالقدح المُعلّى، وتكشّفت له الخفايا . والأكثر أهميّةً بكثير، أنه قد بات مالكاً أدوات وصف وتفسير كافة أو أكثر عناصر الإشكاليّة التاريخيّة التي يُعالجها .

(٣)

سنُخصّص الفصل الأول : "**الشام**" لتوصيف الهيئة السكانيّة الثقافية السياسيّة للمنطقة الشّاميّة . لأنّها كانت، طوال فترة البحث ، المنبعَ الأساسَ للقرار السياسي في دار الإسلام . ومامن ريبٍ في أن معاوية ، اللاعب المُتفرّد ظاهريّاً بكل القرارات السياسيّة فيها ، ومؤسّس الأُسرة الحاكمة فيها ، كان يأخذ بعين الاعتبار، في أدائه السياسي إجمالاً ، مواصفات وأهواء بطانته / الكتلة البشريّة المُماسّة له ، ولا يقطع معها بحال . وهو الذي نعرفه لايتردّد في تعزيز سُلطته من أينما تأتّى له . دون أدنى اهتمام باعتباراتٍ معنويّة .

الفصل الثاني : "**ماضي الأيام الآتية**" مواصفات الخلفيّة السياسيّة التي تشكّلت في " الشام " بدخوله بالفتح في دار الإسلام . باعتبار أنّ تلك الخلفيّة كامنةٌ وراء جُملةٍ من الاحداث ، طليعتُها يوم "كربلا" .

الفصل الثالث : "**سركون والسّركونيّون** " حيث سنُعرّفُ بثلاثة أشخاص ، عاشوا في "دمشق" بخدمة الدولة ظاهراً . لكنّهم في الحقيقة كانوا بمثابة مندوبين ساميّين للدولة الروميّة. هم بالتوالي منصور بن سركون، سركون بن منصور، ومنصور الثاني بن سركون ، الذي سيُعرَفُ بالقديس يوحنا الدمشقي . كلّهم عملوا حثيثاً لِما فيه مصلحة ومرامي أسيادهم الرُّوم .

بحيث أنّه لا يُمكن فهم ما كان عالقاً في "دمشق" دون أخذ أدوارهم بعين الاعتبار.

الفصل الرابع: "**الوضع السياسي بالشام في فترة البحث**" سنُخصّصه لبيان ما خفي من الوضع. ممّا هو ذو علاقةٍ بعمود البحث وإشكاليته الأساسيّة. المُعلَنَة في عنوان الكتاب.

الفصل الخامس : "**من معاوية إلى يزيد**" وفيه نُبيّن ماخفي من سيرتهما. التي غطّت عليها عمداً أعمالُ المؤرخين السُلطويين .

الفصل السادس : "**معاويةُ أميراً وخليفة**" سياسة معاوية أثناء الطورِيَن . بوصفه رجل تسويات فيما يخصُّ شبكة علاقاته الداخليّة . لكنّه خاضعٌ غالباً جدّاً في علاقته مع الدولة الروميّة .

الفصل السابع : " **يزيدُ خليفةً**" . كيف وبأيّة وسيلة توصّل إلى تسنُّم الخلافة ؟ وفيه سنتفحُّص الأخبار التي تزعم أنّه بويع له بيعة عامة في "دمشق" وما شابهها . وبيان وجه الحقيقة في الأمر . ثم ماهي السياسة التي عمل بها أثناء خلافته ، وما هي مراميها.

الفصل الثامن : " **بين السَّلَّة والذَّلَّة**". ماهي الحوافز الأساسية التي كانت وراء إعلان الإمام الحسين (ع) الخروجَ

الصّريحَ على الدولة؟ وبالتالي ما هو الإطارُ السياسي الذي سيتوسّطه يوم "كربلا" ؟ وما هي علاقته بما كان يجري في "دمشق" ، ممّا بينّاه في الفصل السابق ؟

الفصل التاسع : "**السّـرُّ الكبير**" . وهو ما سـيكون ذروة الكتـاب وحـلُّ إشكاليّته . حيثُ سنصفُ التطورات المُتعاقبة ، التي علقت في قلب تركيبة السُلطة ، بعد وبسبب يوم "كربلا" . وتأثيراتها البالغة على الوضع السياسي في "دمشق" إجمالاً . وُصولاً إلى جَرْف المشروع الانقلابي ، الذي أُعدّ له وجرى التمهيد له طويلاً . وكان يرمي إلى الانقلاب الجذري على كلّ المكاسب التي حصلت بدخول المنطقة في دار الإسلام ، بإعلان الرِّدّة العامّة إلى ما كانت عليه من قبل ديناً وسياسةً . أي إلى ما سيأول إلى عودتها إلى أحضان الدولة الروميّة سياسيّاً ودينيّاً . الأمرُ الذي كان يُمكن أن تكون له تداعياته المُماثلة في كامل المنطقة الواقعة شرق المتوسط وشماله .

والحمد لله رب العالمين

بعلبك يوم عاشوراء سنة ١٤٤٢ هـ

٢٨ آب / أغسطس ٢٠٢٠ م

الفصل الأوّل

الشام

(تمهيد)

"الشام" = الشمال ، حسبَ الاسم العربي ، يعني البقعة التي تقعُ شمال بلاد العرب . ثم ورث الاتراكُ العثمانيون الاسم مع إضافة تشريف: "شام شريف". وهو عند اليونان والرومان "سوريا" Syria و Suriya ، نسبةً إلى الامبراطوريّة الآشوريّة. وتبادل الشين والسين في اللغات السّاميّة أمرٌ معروف ، ــ هي البقعة ذات الامتياز، حيث الأرض الخصيبة بما يفوق كلَّ ماحولها ، وحيث تلتقي الطُرُق من أربع جهات الدنيا. حاملةً جحافل الغُزاة ، الأشوريين فالبابليين فالفرُس فاليونانيين . يتوالون عليه أثناء زهاء أربعة قرون . وكلٌّ ترك شيئاً من أثره، وبعضه باقٍ حتى اليوم في أسماء البلدان، وفي اللغة المَحكيّة ، وفي مواصفات الانتاج الزراعي والصناعي .

لكنّ الأثر الأبقى هو ماتركته الهجرات السُكّانيّة الكبيرة القادمة من "اليمن"، أثناء القرون الثلاثة السابقة على الإسلام . بحيث أنه بعدما بسط الروم / اليونانيّو الثقافة سلطانهم عليه حوالي القرن الأوّل للميلاد ، لينفردوا بحكمه بعدُ مدة ستة قرون ، بات عامّةُ سكانه من أُصولٍ يمانيّة .

عندما تنصّر الرُّوم تبعتهم القبائل العربيّة بـ "الشام". لينتهوا بعد فترة التحوّلات العنيفة الجذريّة في العقيدة المسيحيّة ، من أتباع الكنيسة الشرقيّة الارثوذوكسيّة ، الرُّوميّة سياسيّاً اليونانيّةً ثقافةً . ونجح بعضهم في إقامة دولة ، وإن تحت الرّاية الرُّوميّة وعاصمتها "القسطنطينيّة"، هي دولة بني غسان، في نواحي دمشق . التي أرسل النبيُّ (ص) رسالةً إلى ملكها جبلة بن الأيهم ، يدعوه فيها إلى الإسلام. مثلما راسل غيره من ملوك الشرق من حوله . فما كان من ابن الأيهم إلا أن قتل الرسول. فردّ النبي(ص) بحملةٍ صغيرةٍ وصلت إلى "مؤتة" في حدود "الشام"، أنهت المسألة مؤقّتاً نهايةً سلميّة . لأن النبي(ص) ، في سياسته العملانيّة الدقيقة المُتدرّجة ، لم يكن يرمي بنظره إلى أبعد من الحدود الإقليميّة لمهبط الرسالة . أمّا تلك الرسائل المُوجّهة إلى الملوك فما كانت إلا من باب تبليغ الرسالة حسبُ. لكنّ نزقَ واغترارَ ابن الأيهم فرضَ مايلزمُ بالاعتبار التعبوي والأداء السياسي من عملٍ عسكريّ محدود . فكأنّ يوم "مؤتة" كان رسالةً تقول، إن تبليغ الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة ليس يعني أنه أعزلٌ ، يُغضي لنزق وعدوان الطائشين .

هذا البيان الموجز للهيئة السُكانيّة لـ "الشام" إجمالاً ، ولمواصفاتها السياسيّة والثقافيّة والدينيّة إجمالاً ، هي مفتاح

البحث كلّه . فيجب أن يكون حاضراً دائماً في ذهن القارئ ، وهو يجتاز فصول الكتاب الآتية .

(١)

بعد وفاة النبي (ص) بنحو سنتين ، بدأت الإدارةُ الإسلاميّةُ في "المدينة" تشكيلَ الكتائب وعقْد الألوية وتأمير الأُمراء لتوجيهها إلى أنحاء "الشام" ابتغاء فتحه .

ومن الغنيّ عن البيان ، أنّ هذه الخطوة من الدولة الناشئة ، كانت بمثابة إعلان الحرب على الامبراطوريّة الرُّوميّة الجبّارة ، التي يمتدُّ سُلطانُها على رقعة واسعة ، تضمُّ كلّ غرب ووسط "آسية" وشرق "أوروبا".

ذلك قرارٌ سياسيٌّ كبير. لكنّه عصيٌّ على التفسير من وُجهة نظر وحساباتٍ سياسيّةٍ رشيدة . خصوصاً وأن كتائب إسلاميّة أُخرى ، بقيادة خالد بن الوليد ، كانت في الآن نفسه تخوض معارك موازية في " العراق " ، هي ضمناً بمثابة إعلان حرب آخَرَ على الدولة الفارسيّة أيضاً ، بوصفها الحاكم الفعلي لـ " العراق " ، ولا تقِلُّ جبروتاً وقوةً عن رصيفتها الكبرى ، إنْ لم تـزِدْ .

غريبٌ حقاً أن تعمد الإدارة الجديدة بعد الرسول(ص) بمدّةٍ وجيزةٍ إلى استفزاز جارتيها الجبارتيَن في الشرق في وقتٍ

واحدٍ معاً . دون أيّ مُقتضى سياسي على مستوى العلاقات ، ممّا يدعو الدول إلى إعلان الحرب .

حقٌّ أن الرسول(ص) كان المُبادرَ من قبلُ في معركتين محدودتيَن في أطراف"الشام" ، ضدّ قوّاتٍ ، وإنْ تكُن عربيّة ، لكنّها محسوبة على الدولة الروميّة وضمن رعيّتها . لكنّ معركتيَ "مؤتة" و"تبوك" كانتا لسببٍ سياسيّ معلوم ، وبالحجم المناسب لسببهما . ولم تكونا بقصد الفتح بالتأكيد . ولايمكن اتخاذهما أخلاقيّاً / شرعيّاً سابقةً ، يمكن أن يُقال أنّ حركة الفتوح فيما بعدُ قد بنَتْ عليها.

فلماذا ، إذن ، عمدت الإدارة السياسيّة الإسلاميّة من بعد الرسول (ص) فوراً إلى ركوب هذه المخاطر الكبيرة ، بالنظر إلى ميزان القُوى المائل بقوّة لصالح العدويَن ؟

نظنُّ أن السبب السياسي ، في ذهن مهندس حركة الفتوح ، هو داخليٌّ صِرْف . وأنّه إنما رمى إلى تصريف فائض القوّة ، التي كانت طوع إدارة الدولة الإسلاميّة . بعد أن سكت القتال الداخلي واستتبّتْ لها الأُمور. وآخرها بالقضاء المُبرم على ماسُمّي ، على لسان الإدارة نفسها ، بـ (الرِّدّة) . تعني الذين رجعوا إلى الكفر بعد إسلام .

والحقيقة أنّه ماكان ثمّةَ من ردّةٍ ولا من مُرتدّين بحجمٍ يُعتدُّ به ، وبالمعنى الصحيح للكلمة ، لأنها :

ــ أولاً: لم تكن كلّها ضدّ مَن كانوا مسلمين ثم ارتدّوا بعد النبي (ص) . بل إنّ بعضها كانت ضدّ أعرابٍ لم يعتنقوا الإسلام ديناً من قبل .

ــ ثانياً : إن بعضها الآخَر والأكثر والأقسى كان ضدّ الذين ثاروا فحوربوا دون هوادة. ولم تكن ثورتهم ضدّ الإسلام ديناً يؤمنون به . بل فقط بامتناعهم عن تسديد الزكاة لهذه الإدارة الفعليّة بالذات. بما يعنيه أنّها لم تكن عندهم الشرعيّة التي أودعهم النبي (ص) إياها قبل وفاته . وهؤلاء لم يكونوا قِلّة .

(٢)

مهما يكُن ، فإن البعوث الإسلاميّة سلكت إلى "الشام" غير طريق. ثم انتشرت في أنحائه ، حيث كان المَـدَدُ بعد المَـدَد يأتيها من "المدينة". ما يدلُّ على أنّها لم تكُن تتحرك وفق خطّةٍ عسكريّة مُقـرّرة ، مبنيّةٍ على معلوماتٍ استخباريّة ، كما نقولُ اليوم . وأنّه لم يكُن في قِبالها جيشٌ مُنظّمٌ ومواقع تجمّعاتٍ قتاليّة ثابتة ، بل سُكّانٌ تمرّسوا بالدفاع عن أنفسهم وأرضهم . بالإضافة إلى أنّ أجهزة الدولة الروميّة المركزيّة في "القسطنطينيّة" لم يكُن في حُسبانها أن يخرج من "شبه الجزيرة"، ومن بين أهليها أشباه البُداة ، مَن يُحدّثَ نفسه بمناجزتها على أرضها. ثم أنّها كانت مُطمئنةً من جانب القبائل العربيّة

المُتنصّرة ذات القوّة والعدد ، بأنّها كفيلةٌ وحدها بما لديها من قوّاتٍ ذاتيّةٍ بعلاج هؤلاء الغُزاة البائسين ، بما هم عليه من لباسٍ أشبه بالأسمال ، وسلاحٍ بسيطٍ من سيوف ورماح وسهام وافتقارٍ إلى التكتيك العسكري . كما فعلوا وأحسنوا الفعلَ لها من قبلُ يومي "مؤتة" و "تبوك" .

بالإضافة إلى سياسة تصريف فائض القوّة ، ثمة سببٌ آخر نظنّ أنه كان أيضاً في ذهن مهندس حركة الفتوحات أيّاً كان . هو أنه أثناء السنتين الأخيرتيَن من حياة النبي (ص) حصل دفْقٌ بشريٌّ هائلٌ ، قادمٌ من أنحاء"اليمن" أكثرَ ماكان ، نحو"الحجاز". وخصوصاً نحو حاضرتيَه "مكة" و"المدينة". التي باتت الآن تتمتّع بوضع العاصمة المركزية لـ "شبه الجزيرة" . دون أن ننسى أن نصف سكانها أيضاً ، على نحو التقريب ، كانوا قبلاً من أُصولٍ يمانيّة . وعلى كلّ حال ، فإنّ " اليمن " كانت ، من قبلُ ومن بعدُ ، مصنعاً بشريّاً نشيطاً ، يفيضُ فيضاً على كلِّ ماحوله .

من المفهوم والرّاجح جِدّاً ، أن بطون قريشٍ الكبرى كانت ضيّقة الصّدر بهذا الـدّفق السُكّاني نحـو مرابعها . فكـأنّ الإسلام لـم يكتـفِ بانتـزاع كافة امتيازاتها المادّيّة والمعنويّة منها، بل هاهو الآن قد أودى بطبيعته ودون قصد إلى أن يُزاحمها مادّيّاً في مواطنها التاريخيّة، التي كانت حُكراً عليها

مدّة قرون. بحيث باتت مُهدّدةً بأن تغدو أقليّة فيها . وما قد يترتّبُ على ذلك من خسارةٍ للامتيازالأساسي الوحيد الباقي لها.

الحلّ الذّرائعي البسيط والذكي معاً ، بالنظر لمقاصده الآنيّة طبعاً ، أتى بتحريك وتوظيف ذاكرة الإنسان العربي باتجاه الغزو. وهو الذي كان في ماضي الأيام غير البعيدة السببَ الغالبَ لشنّ الحرب على أبناء قبيلةٍ أُخرى، كما كان مسرحَ البطولات ، ومُحرّكَ سليقة الشعراء ، والموضوعَ الأثير لمفاخراتهم . كلُّ ما في الأمر، أنّه كان قبلُ لحساب ابناء العشيرة الغازية، فصار الآن لحساب الدولة وتحت رايتها. وأنه كان ابتغاء النّهب والسّلب الشخصي ، فصار الآن بخدمة توسيع رقعة الدولة .

هكذا تكون حركة الفتوح قد حقّقت لقريش هدفيَن عزيزيَن : حوّلت اتجاهات الحركة السُكّانيّة العالقة ، التي نشأت على أثر قيام دولةٍ مركزيّة مقرّها "الحجاز" ، بعيداً عن منطقة ثقلها السُكّاني . بحيث تحافظ على ثقلها العددي في قلب الدولة . كما أنّها عطّلت ، وإنْ مؤقتاً ، التأثيرَ السياسي للجماعات المنضوية حديثاً في الإسلام . وخصوصاً أهل "اليمن" ، بما لديهم من تجربة سياسيّة تاريخيّة مدينيّة عميقة ، متقدّمة بمسافةٍ طويلةٍ عن كلّ سكان شمال " شبه الجزيرة العربيّة " ، بما لدى هؤلاء من (تجربة) بائسة ، تدور على

القبيلة وأعرافها، وعلى الإنسان المُفتقر إلى حالةٍ تنمويّة/إنتاجيّة تقوم بأوده . المطلوب عند بطون قريش أن تبقى تدور على محورها نفسه .

(٣)

مضت المعارك في أنحاء "الشام" ، بين العرب المسلمين والآخرين المُتنصّرين ، أشبه بمناوشاتٍ صغيرة غير حاسمة ، أكبرها معركة " مرج الصُّفّر" بسهل " شقحب " بجوار" دمشق ". التي كانت أصغر من معركة وأكبر من مناوشة.

لكنّ استمرار المناوشات زمناً على ذلك الذّيدن ، فضلاً عن وصول الامداد بعد الامداد من " المدينة " ، بالإضافة إلى ما تقوله بعض المصادر الأجنبيّة ، من أنّ بعض عرب "الشام" لم يكُن ضيّق الصّدر بما كان يجري . بل إنّ منهم مَن قيل أنّه قد رحّب بالغُزاة المسلمين ، بل وقيلَ أنّ منهم مَن مدّ لهم يدَ العون، مُزوِّدين بالمؤن والاعلاف ، ومُمدّين بالأدلاّء على المسالك . (**انظر، مثلاً ، الفصل الأول من *فتح العرب للشام* للمؤرخ جورج حدّاد ، حيث بسط بنحوٍ جيّدٍ أبحاث المستعربين الغربيين الدقيقة في هذا النطاق**) .

ذلك ما أيقظ السُلطةَ الرّوميّةَ في "القسطنطينيّة" ، فرأت أنّها الآن على أمرٍ مختلف عن كلِّ ماسبقه . وأن الشأن ليس

شأن غزوة سريعةٍ من أعرابٍ بائسين ، لغرض النّهب ، ثم ينكفأ الغُزاة بعدها سريعاً إلى بلادهم ، كما كان يحدث من قبل . فشمّرت عن ساعد الجِدّ . وحضر الامبراطور هرقل بنفسه من عاصمته ، على رأس جيشه ، وانضمّ إليه كبريات القبائل العربيّة المُتنصّرة : بُهراء ولخم وجُذام وكلب وعاملة وغسّان. وكان اللقاء في "أُجنادين"، بـ "فلسطين" . في٢٧ جمادى الأُولى ١٣هـ /٣٠ تموز/ يوليو ٦٣٤ م. حيث ذاق الروم طعمَ الهزيمة في "الشام" لأوّل مرّة .

كان من أهمّ آثار الهزيمة يوم "أُجنادين" استيلاءَ المسلمين السّهل على "دمشق" ، بالنّظر إلى حصانة المدينة ، وضعف خبرة وتجهيزات المسلمين بالتعامل العسكري مع الحصون ، بعد بضع أشهر . تبعه التساقط السريع للمُدُن في جنوب ووسط وشمال "سوريّة".

ومع ذلك فإن الامبراطور هرقل ، الذي أمضّته الهزائم المُذلّة ، ظلّ معلّقَ الأمل بمعركةٍ أخيرة . وبينما سكن المسلمون إلى انتصاراتهم، انصرف هو ، أثناء زُهاء سنتين ، إلى تهيئة عُدّة المعركة القادمة . فجمْع كل ما طوع يديه من قوّات ، فارضاً الجنديّةَ الإجباريّة على كلّ رعيّته ، بالإضافة إلى الذين بقـوا على الولاء له من عرب "الشام" ، تحضيراً لمعـركةٍ أرادها الحاسمة . وأخيراً التقى الجيشان سنة ١٥هـ /

٦٣٦ م في "اليرموك" بوادي "الأُردُنّ" ، حيث دارت معركةٌ عنيفة ، انتهت بهزيمة الروم هزيمةً ساحقة . بالرغم من الفارق الهائل بين العسكريَن في العُدّة والعدد لصالح الرُوم . وما زال المؤرخون حائرين في تفسيرها .

هكذا انتهى الرُومُ في "الشام" ، بعد أن حكموها قروناً حكماً لم يُكدّر صفوَه أحد ، إلا ماكان من بعض المناوشات والمعارك الصغيرة مع الامبراطوريّة الفارسيّة . كما غادرها الامبراطور هرقل مَهزوماً كسيراً كاسف البال ، ومعه مَن بقي من جيشه. ومازال المؤرخون يُردّدون كلماته الحزينة ، وهو يُودّع إلى الأبد دُرّة تاجه الثمينة الفقيدة .

وهكذا بدأ وجه "الشام" يتبّدل سُكّانيّاً وبالتّبع ثقافيّاً . تبدُّلات كانت مُلتبسةً بالماضي في البداية ، سيكون علينا أن نقرأها ونُركّبها فيما سيأتي. لكنّها ما لبثت غير بعيد أن غذّت الخُطى باتجاهٍ يُناسبُ هُويّة أوضاعه الجديدة.

واليوم بات "الشام" ، كما كان دائماً ، مستودعاً كبيراً يتمازجُ فيه الماضي البعيد والحاضر بنحوٍ نادر المثال . كما بات خزّاناً بشريّاً نادر المثال أيضاً . تلتقي على أرضه الواسعة شعوبٌ عريقةٌ، حاملةً معها هُويتها التاريخيّة وتقاليدها ولغاتها، بل وإلى ما قبل قليل أزياءَها .

الفصل الثاني

ماضي الأيام الآتية

(تمهيد)

نقصدُ بالـ "**ماضي**" ، في العنوان أعلاه ، مواصفات الخلفيّة السياسيّة التي تشكّلت في " الشام " إثـرَ دخوله بالفـتح في " دار الإسلام " . باعتبارها (أعني الخلفيّة) كامنةً وراء جملةٍ ممّا ستأتي به "الأيام الآتية" ، بالنسبة لمساق الاحداث . التي نعني بها في بحثنا هذا طليعتَها يوم "كربلا" .

كلُّ حدَثٍ في الزمان ، كبُر أم صغُر، خطيراً كان أم هيّناً، هو حلقةٌ من سلسلةٍ ، كلُّ حلقةٍ لها ماقبلها ولها مابعدها. ولا سبيل إلى فهمها إلا بوضعها في سياقها من جملة الاحداث ــ الحلقات المُتتابعة . وجَماعُ ذلك ، في نهاية السّعي ، هو ما نُسميه القصّة ، التي يدور كلُّ سعي المؤرخ الحقيقي على تركيبها تركيباً ، من نثارها المُوزّع في النقولات التي توعيها الذّاكرة مكتوبةً أم شفويّة .

إذن، فالذين يكتبون تاريخَ مامضى تفاريق ، يجمعونها جمْعاً تحت عنوان: قال ، وقال . . ليسوا من العمل التأريخي في شيء. لأنّ جزءً من الحقيقة التي يبحثون عنها قد يكون خفيّاً ، كامناً بين حدثَيَن متواليَين . ولن يروه مذكوراً فيما تحت

يدهم من نقولات ، ولن يظهر إلا بالتركيب . أي ببيان الصّلة بين السابق واللاحق. فتظهرُ القصّة .

لكنّ ما يُهوّنُ الخطبَ على الباحث ، وهو يسعى إلى تركيب القصّة ، أنّه كلّما كبُر الحدَثُ وعظُم ، توفّرتْ بنحوٍ أفضل مُفردات القصّة التي يبنيها . والعكسُ صحيح . لأنّ الذّاكرة ، فرديّةً كانت أم جمعيّة ، تتحرّك نحو الجليل والخطير، فتتوفّرُ المادةَ التي تُعينُ الباحثَ على تركيب القصّة . وتزورُّ عن الضئيل فتضيع .

لذلك ، وبما أنّ غرضنا الآن هو بناء/ تركيب ما قد خفي من قصة يوم "كربلا"، فإنّنا سنوردُ مابدا لنا، بعد البحث والتأمّل، العامليّن الأساسيَين، مهما سيراهما القارئُ لأول وهلة بعيديَن ، اللذين بتفاعلهما في الزمان (الذي سيكون تتبّعه محلَّ عنايتنا المُشدّدة طبعاً) انتهيا إلى ما جرى في سويعات يوم العاشر من المحرم سنة٦١هـ/٢٠ أيلول ، سبتمبر٦٨٠ م . مُستولداً انقلاباً هائلاً لن يتيسّر مثله لأعتى القُوى . ما زال يتدحرج ، فكأنّه ينطوي على طاقةٍ ذاتيّةٍ لا تنفُد .

(١)

العاملُ الأوّل : أن الرُّوم عندما انسحبوا بعسكرهم نهائيّاً من "الشام" ، اصطحبوا معهم عشرات الأُلوف من أبناء أربعة من القبائل العربيّة الشّاميّة الكبيرة . هي غسان وعاملة ولخم

وجُذام . وأن انسحاب هؤلاء كان بقضّهم وقضيضهم . أي أنّهم اصطحبوا معهم أفراد أُسراتهم ، على نحو ما يفعل الذين يُبدّلُون أوطانهم .

ربما سيتساءل القارئ العارف : أنّى وكيف عرفنا هذا العنصر الهام من عناصر تاريخ الفترة هذه المعرفة المُفصّلة ، مع أنّه لاذكر له في كتب التاريخ بهذا النحو الذي ذكرناه ؟

في الجواب نقول : هوذا أُنموذجٌ لِما غادرنا الكلامَ عليه قبل قليل ، أي فائدة وضرورة القراءة التركيبيّة للمادة التاريخيّة الخام . وفي المقابل على فقر وبؤس القراءة الحَدَثيّة الفرديّة ، إذ تكون منسوخةً نسْخاً عمّا هو في المصادر.لأنّ الحقيقة كثيراً ماتكون خبيئةً بين حدثيَن ثابتيَن.

تطبيقُ هذا النهج على موضوع السؤال :

ــ الثابتُ الأوّل : أنّ من المؤكّد أن تلك القبائل الأربعة كانت من أكبر وأقوى القبائل العربيّة المُتنصّرة اليمانيّة الأصل في "الشام" . وأنّ مواطنها ومنازلها فيه معروفة .

ــ الثابت الثاني : أنّه ماأن غادر الرُومُ أرضَ "الشام" حتى افتقدنا أبناء تلك القبائل الأربعة تماماً ، إلا ماكان من أفرادٍ قلائل قد تُخلّفهم وراءها أيُّ حركةٍ سُكانيّة مُهاجرة مهما تكُن كبيرة وشاملة. ومن إمارات افتقادنا إياهم ، أنّنا لم نعُدْ نرى في الكُتُب ذكرَ أشخاصٍ منسوبين إلى غسّان مثلاً:(الغسّاني) ،

أو المنسوبين إلى بني عاملة : (العاملي)، إلا نادراً. (وهي غير النسبة إلى "جبل عامل" التي نشأت فيما بعد ، وليست لها أدنى علاقة بالنسبة إلى القبيلة) . وهكذا فيما يخصُّ قبيلتَي لخم وجُذام.

وبما أنّنا نعرف على نحو الاجمال أنّ من العرب مَن التحق بالروم وهم يغادرون "سوريا" . فلمّا فقدنا أبناء هذه القبائل الأربع ، عرفنا أنهم هم الذين غادروا أوطانهم في "الشام" إلى الأبد .

فهذا أُنموذجٌ على حقيقةٍ خفيّةٍ اكتشفناها بتركيب ثابتَين. هما الوجود الكثيف بـ"الشام" للقبائل الأربعة أيامَ الروم . ثم انعدامهم فجأةً بعد أن غادروها . دون أن ننسى المعونة التي قدّمها لنا علمُنا إجمالاً بأنّ من العرب مَن كان قد غادر أرض "الشام" مع الروم .

في المقابل نعرف أن طي وربيعة وبهراء ، وهي أيضاً من كبريات القبائل العربيّة المُتنصّرة في "الشام" ، قد بقيت في أوطانها. ومع الوقت أسلمتْ وحسُن إسلامُها . ولله الحمد .

فمن طيّ سكان مدينة "الرملة" وما والاها في جنوب "الشام"، التي حكمها أُمراءُ بني جرّاح الطائيّين مدةً طويلة . بل وحاولوا إقامة دولةٍ على النمط الشيعي الإمامي.لكنّ الدولة الفاطميّة الإسماعيليّة أحبطت المشروع ، لأسبابٍ غير خفيّة .

ومن إمارات تحوّلات طي العميقة ، عديّ بن حاتم الطائي . الذي يبدو أنّه كان في بدو أمره مسيحيّاً ، كأبيه الشهير وكقومه إجمالاً ، قبل أن يغدو من خيار أصحاب وأصفياء وناصري أمير المؤمنين علي (ع) .

ومنها أيضاً بنو عمّار أُمراء "طرابلس" المُستنيرين . الذين حكموا مدينة "طرابلس" الشاميّة أثناء القرن٤ هـ/ ١٠ م . فطوّروا المدينة ونمّوها نموّاً شاملاً مادّيّاً ومعنويّاً ، إنتاجيّاً وثقافيّاً ، بنحوٍ لانجِد له مثيلاً في كل الدنيا يومذاك بمقدار ما نعرف .

ذلك ما كُنّا قد بسطنا الكلام عليه في الفصلين السابع والثامن من كتابنا *شيعة لبنان والمنطلق الحقيقي لتاريخه* .

ومن ربيعة بنو حمدان أُمراء"حلب". الذين جعلوا من المدينة منارةً عاليةً في الجهاد والعلم والأدب. ما يزال النابهون من أهلها يعيشون على ذكراها حتى اليوم .

وعلى كلّ حال ، فإنّ مواقف ربيعة مع أمير المؤمنين (ع) في حروبه أمرٌ معروفٌ مشهور.

أمّا بُهراء، فمنها أسلاف الشيعة الإماميين المعروفين اليوم بالعلويين. الذين ترقى أُصولهم المكانيّة المعروفة إلى أطراف"العراق" من ناحية "الشام": (سنجار، عانة ، الحديثة) ،

قبل أن يتحوّلَ أكثرهم إلى سُكنى الساحل السوري والهضاب المُسامتة لها ، حيث هم اليوم.

وربما كان منها أيضاً أُصولُ الشيعة الإماميّة أيضاً المعروفين بالبكتاشيين في "الأناضول" و "تركيّا" و"ألبانيا" و"البوسنة" . وكلاهما (العلويين والبكتاشيين) ممّن أُوثرُ أن أُسميهم أهل (التشيّع الشامي). الذي تطوّر ذاتيّاً. ولم ينجح في تكوين نُخبةٍ فكريّةٍ مُفكّرة ، تُجادلُ عنه ، وتشدُّ لُحمته ، وتقود خطاه في الوضع العسير الذي اضطرب فيه . ولذلك فإنّه تبعثر سُكّانيّاً حتى وصل إلى شرق "أوروبا". كما ضاع تاريخه، لأنّه كان يُبدّل أرضه غير مرّة . والأرض هي وعاء التاريخ فإن افتقدها ضاع .

(٢)

ممّا لاريب فيه ، أنّه عندما اصطحب الروم ، وهم خارجون من "سوريا" باتجاه بلادهم ، تلك الاعداد الغفيرة من العرب ، فإنما كان لغرضٍ تعبويٍّ يُعتدُّ به ، وتنفيذاً لقرارٍ سياسيٍّ كبير، اتُخذَ على أعلى مستوى من الامبراطور الحاضر وفريق عمله ومستشاريه . وأنّ من المُستبعَد جداً أن يكون ذلك قد تمّ بناءً على قرارٍ أو رغبةٍ من العرب المهاجرين وحدهم . كأن يُقال ، مثلاً ، أنّه خشيةَ انتقام السُلطة الجديدة، أو لأيّ سببٍ ممّا يتصلُ بنتائج معركة "اليرموك" الحاسمة .

بشهادة أنّ هذه الخشية لامُبرّر لها في سوابق المسلمين تجاه أعدائهم .

هذه النتيجة تطرحُ سؤالاً كبيراً :

إذن ، لماذا لجأت الدولة الرّوميّة إلى هذا التدبير العجيب، وهي التي خرجت مُتعبةً من هزائم المعارك المتوالية . خصوصاً يوم "اليرموك" الذي اقتضى الإعداد له عمل سنتين ؟

أعتقد أنّنا يجب أن نبحث عن الجواب في عقل الإمبراطور هرقل . فهو في النهاية الذي اتخذ القرار بشأنه . وهو الذي اكتوى بنار الهزيمة تلو الهزيمة ، على أيدي مَن لم يكونوا عنده وعند غيره في الحُسبان. وهو الذي اتخذ قرار تهجير الذين هاجروا معه . ولذلك فإنّ من المُتوقّع والمفهوم ، أنّه عندما أُخرج من "الشام" كان يطوي جوانحه على العزم على الثأر لنفسه بالعَوْد إليه مُنتصراً . وأنه كان يُعملُ النظرَ في الإعداد لذلك اليوم . بعد أن استوعب مغزى هزيمته المُذلّـة في المعركة الأخيرة ، على يد جيشٍ لا يزيد
عديده على خُمس جيشه. فضلاًعن الفارق النّوعي الكبير لصالحه في العتاد والتكتيك العسكري.

ولقد سبق منّا القولُ قبل قليل ، أنّ الامبراطور، في سبيل الإعداد لآخر معاركه في "الشام"، فرضَ التجنيدَ الاجباريّ على كلّ رعيّته. وبهذه الوسيلة تأتّى له أن يجمع

جيشاً لجباً ، يزيد كثيراً على مائة ألف مُقاتل . لكنّه لا يمكن أن ينتصر، لأنه من أخلاطٍ متنافرة . فضلاً عن أنّه مُكرَهٌ يفتقرُ إلى الحوافز الذّاتيّة للقتال . فالإنسان يبذلُ نفسه في ساحات الوغى ، فإنّما لأنّه يُدافع عن نفسه وأهله وبيته . أو لأنّه يعتقد أن القتال واجبٌ عليه بحسب عقيدته (الجهاد) ، أو مطلوبٌ بالنّظر لمصالحه (الغزو) . وكلُّ ذلك لم يكُن في وُجدان وقناعة الجيش الرومي ، فلا الأرضُ أرضُه ، ولا أهلوها أهلُه . وهو إنما يُقاتل فلأنّه مأمورٌ مجبور. على عكس المُقاتل المُسلم ، الذي كان يعتقد أنّ قتاله جهاد ، سيعود عليه بالنصر المؤزّر لقومه ولدينه ، أو بالفوز بالجنان والرضوان في الآخرة .

هكذا تبدأ إماراتُ أسباب ذلك التدبير الغريب من الامبراطور في الظهور للقارئ الحصيف . لقد استوعب مغازي هزائمه ، وبالخصوص يوم "اليرموك" . وها هو يعملُ على تكوين خميرة جيشٍ يملك حافزاً قويّاً مُزدوجاً للقتال : نُصرة دينه في مُقابل الأغيار . واستعادة الأرض والبيت من مُغتصبيهما . ابتغاء أن يعود (الجيش) إلى "الشام" ، فيطرد مَن سبق أن طردوه ، وليُعيدوا إليه درّة تاجه الفقيدة .

حقٌّ أنّ ذلك الهدف لم يتحقّق أبداً. ربما لأن هرقل لم يطُل به العمر، ليتوفّى سنة ٢٠هـ / ٦٤٠ م . وأنّ أولئك

المُهاجرين لم يروا أوطانهم الفقيدة من بعد إطلاقاً . بل ذابوا حيث أودعهم سادتهم الروم موزّعين في رقاع امبراطوريّتهم الواسعة .

ويُقال أن أهل "أدرنه" و"سالونيك" في "تركيّا" هم من بقايا بني غسّان . وذلك أمرٌ معروفٌ بينهم . كما يُقال أنّ الضباط العسكريين منهم شاركوا بحماسةٍ في مساعي مصطفى كمال أتاتورك للقضاء على الوجه الإسلامي لـ "تركيا". وأنهم أعلنوا اغتباطهم عندما ألغى منصب الخلافة فيها . فكأنّه ثأرَ لهم ، وإن بعد قُرونٍ وقُرون .

كما أن من العرب مَن أُسكن "جورجيا" غرب "القوقاز" (حداد : فتح العرب للشام/١٥) . ويُقال أنّ فيها حتى اليوم قُرى ما يـزال أهلها يذكرون أنّ أصلهم من العرب . وأن ذلك مَلحوظٌ في أُسلوب عيشهم وفي اللغة الخاصّة المُتداوَلَـة بينهم (**انظر باب "جورجيا" في كتابنا *الشيعة في العالَم***) . فالظاهر أن هؤلاء من جملة الذين وقعوا بين مطرقة الفتوح وسندان الدولة الروميّة ومصالحها . فضاعت عليهم أوطانهم ، وباتوا أداة ضغطٍ سياسيّة بيد الروم، تُلوّح بهم كلما اقتضت مصالحها . وما ندري كيف اضطربوا في حياتهم حتى اليوم .

وعلى كل حال فإننا سنبسط الكلام فيما يوضحُ هذه الإشارات عن قريبٍ إن شاء الله .

ومع ذلك ، مع أن التدبير الامبراطوري لم يكن ذا جدوى مباشرة ، بالنظر لِما عرفناه من مرمى الامبراطور منه ، فإنه لم يكُن كلّه سُدى، ولم يذهب هباءً منثورا. بل بقي لبضع عقودٍ من السنين عاملاً فاعلاً، يوظَّفُ رسميّاً لأغراض سياسيّةٍ وماليّةٍ ، كلُّها لمصلحة الدولة الروميّة في "القسطنطينيّة". سيكون بسطُه محلَّ اهتمامنا فيما سيأتي إن شاء الله . لِما له من علاقةٍ صميمة بما هو تحت عنوان الكتاب . حيث سنرى كيف بات عنصراً أساسيّا فيما خفي من خلفيّة يوم "كربلا" .

(٤)

العامل الثاني: توليةُ معاوية على"الشام" ، على أثر فتح "دمشق" نهائيّاً بعد يوم "اليرموك" .

وإنما نحتسب توليةَ معاوية عاملاً ثانياً مُضافاً إلى الأول ، بحيث أنشأ الاثنان مُركّباً تاريخياً فاعلاً ، لأنّه لولا ذلك (أعني التولية) لَما كان لسابقه (التحاق بعض عرب الشام بالروم) من بالغ الأثر في الأحداث العالقة ، ما جعل الأُمور تتدحرج ، بحيث ساقت إلى يوم "كربلا" المشؤوم . وسيتّضح ذلك للقارئ الذي سيُرافقنا فيما يأتي من تمام البحث . وليس عليه الآن إلا أن يتحلّى معنا بالصبر.

لذلك علينا أن نُعـرّج قبلُ على قضيّة تولية معاوية

وسياسته من بعد ، فنقِفُ على ماتحتها من مغازٍ وخفايا . فهناك تكمنُ البدايات ، التي أفرخت وأثمرت ثمارها السوداء المُرّة في الآتي القريب من الأيام .

والمعروفُ المُتداوَلُ في كُتُب التاريخ والسيرة ، أنّه على أثر وفاة الوالي السابق على "دمشق" يزيد بن أبي سفيان سنة ١٩هـ / ٦٤٠ م ، حضر عمر بن الخطاب بنفسه إلى "الشام" و"**أفرد معاوية به** [يعني ولاّه على كلّ الشام ولايةً عامةً] **ورزقه في كلّ شهر ثمانين ديناراً** " . (الذهبي: تاريخ الاسلام/عهد معاوية/٣١٠. ومثله في البداية والنهاية لابن كثير/حوادث السنة ٢٠هـ) وهو نصٌّ يصلحُ أن يكون مفتاحاً لتركيب تاريخ المنطقة على عهد معاوية وابنه يزيد (١٩ـ٦٤هـ/٦٤٠ـ٦٨٣م) . وهي هي تلك الفترة الحرجة ، التي شهدت أخطر الاحداث وأبعدها أثراً في تاريخ الاسلام وأهله .

وأوّلُ ما يُلفتنا في النصّ ، هو نفسه ما ألفتَ المؤرخين من قبلنا ، فدعاهم إلى التنصيص عليه . ولو انّه كان أمراً مسنوناً في سِيَر السابقين ، لَما كان للتنصيص عليه من سببٍ عندهم ، ولاعندنا بالتّبَع ، ــ هو أنّ الخليفة ما أن وصله نبأُ وفاة يزيد غير المُتوقّعة في وباء الطاعون ، المعروف بطاعون "عمواس" حيث بدأ ، حتى سارع إلى الحضور بنفسه . وذلك أمرٌ قد يكون وراءه غير سبب ، لسنا نملك من المعلومات ما

يؤهّلنا للخوض فيه باحثين عن السبب . وإنْ نكُن لانشكُّ في أنّ وراءه سببٌ خاصٌّ . لأننا لم نرَه (الخليفة) ، لا من قبلُ ولا من بعد ، يولي الأمرَ مثل هذا الاهتمام الشخصي ، حالَ وفاة أحد الوُلاة . وكأنّ في ذهنه قرارٌ حَتمٌ ، بأن تكون الولاية على"الشام" لأُمويٍّ حصراً . وأنّه كان ثمّةَ من قادة الفُتوح مَن يُحدّثُ نفسه أو يسعى لأمرٍ مختلف . فحضر بنفسه وحسمَ الأمر . ولولا ذلك لكان من الممكن أن يُعالَجَ هذا الأمر الهيّن بغير طريقةٍ مختلفة ، لاتقتضي أن يتجشّم الخليفة مشقّة السفر الطويل من "المدينة" إلى "دمشق". والله أعلم .

ثاني مايُلفتنا في النّصّ نفسه ، أنّ الخليفة خصّ الوالي الجديد براتبٍ شهري مقداره ثمانون ديناراً . وليس ذلك بالأمر البِدْع ولا العجيب . لكن بالنسبة إلينا نحن المؤرخين ، وظيفتنا أن نتشبّثَ ونتأمّل في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ نجِدُها في النصوص الأصليّة ، ــ فإنّنا نُلاحظُ أنّ هذا القرار كان من العلنيّة ، إلى درجة أنّه وصل إلى أسماع الناس فسجّله المؤرخون . ومن هذا الطريق وصل إلينا .

هذا القرار، بما رافقه من علنيّة ، يبدو لنا أيضاً أمراً نافراً. خصوصاً وأنّنا نعرف أن ولاية معاوية على "الشام" كانت أشبه بالمُلك منها بالولاية الخاضعة للمُراقبة والمُحاسبة الدقيقة. على ماهو معروفٌ مشهورٌ بين الكافّة ، من صرامة الخليفة

مع عُمّاله في الأقطار. التي كانت قد تصِلُ إلى حدّ إيقاع العقاب الجسدي ، بدُرّته الشهيرة ، بالوالي الذي لا يُقنعه بأنّه يلتزم دربَ الأمانة المُطلقة ، فيما تحت يديه من أموالٍ عامّة . لا نستثني من هذه السياسة إلا معاوية وحده لاشريك لها ولاشبيه فيما نعرف .

إذن ، فما معنى أن يُعلن الخليفة قرار تخصيص الوالي براتبٍ محدود من الخزينة المركزيّة ؟! في حين أنه كان حسب الفرض يقبض على كلّ عوائد " الشام" .

لكنّنا لن نبدأ الآن محاولةَ التأمُّل في سرّ هذه الخصوصيّات إجمالاً ، لأنّنا بحاجةٍ قبلُ إلى التدقيق والتعريف بمواصفات الظرف السياسي الذي عمل وسيعملُ فيه معاوية طوال مدّة حكمه . أي السنوات الأربعين القادمة . ومنه، بل في الأساس منه، أولئك الذين يُسمّون(السركونيون)/(السرجونيون) . الذين سنخصّهم بالفصل التالي .

الفصل الثالث

سركون والسركونيّون

(١)

وقد يُكتبُ الاسمُ الأول في مصادر عربية (سرجون) . وهو ، كيفما كُتب ، من أصلٍ أشوريٍّ عريق ، يرجع إلى أيام عزّهم الغابر في القرن الرابع قبل الميلاد بالدولة / الامبرطوريّة الأكّديّة الأشوريّة ، ومؤسسها سركون الأكّدي. ومن غرائب وجوه تعلّق البشر بذاتيّتهم الثقافيّة ، أنّ الاسم ما يزال جارياً حتى اليوم في بقايا الأشوريين في "العراق" ، على بُعد الزمان السّحيق بأصلهم. ومنه الشاعر العراقي الشهير ، الذي فقدناه منذ مدّة سركون بولس .

ولكن ماهي علاقة الاسم بالبحث ، بحيث خصصناه بفصلٍ من فصول الكتاب ؟

نقول في الجواب : إنّ الاسم حمله بالتوالي ثلاثةُ أشخاص من ذوي الأثر العميم والموقع العالي في منطقة البحث ، بطوريها الرومي ثم الاسلامي . جميعهم عاشوا في "دمشق" . وجميعهم عملوا علناً في خدمة الدولة الإسلامية ، وسرّاً في خدمة الدولة الروميّة . أوّلهم في الطور الرومي

فالإسلامي ، والاثنان الباقيان في الطور الاسلامي. ونحن نزعم ، حتى نُقيم الدليل على مانقول ، أن الاثنين اللذين عاشا وعملا في الطور الاسلامي ، كانا من أبعد الناس أثراً في سياسة الدولة ، طوال فترة حكم معاوية وابنه يزيد(١٩ـ٦٤هـ /٦٤٠ـ٦٨٣ م) . وساهما، من موقعهما ، مساهمةً أساسيّةً جدّاً في تخليق الشروط والاحوال التي فرضت في النهاية يوم "كربلا" ، بالنحو الذي حصل فيه . وبالنتيجة في سقوط الفرع السفياني من البيت الأُموي.

ومع ذلك فإنّ اسميهما لايرِدان في أخبار ذلك الأوان إلا لُماماً . أولاً لأنّهما لم يكونا من ذوي المناصب الرسميّة ، وإنْ هما من ذوي النفوذ البالغ . ومؤرخونا لا يولون كلَّ اهتمامهم إلا لأصحاب المناصب. وثانياً لأن من عملهما ماكان يتمُّ تحت غطاءٍ كثيفٍ من السّرّيّة . فلا ينِدُّ عنه إلا ماقد يصادف أن يفلتَ إلى العلن لسببٍ أو لغيره .

(٢)

أولُ الثلاثة منصور بن سرجون ، الذي تُضيفُ بعض المصادر العربيّة إلى اسمه لقب " الرُّومي ". ونحن نُرجّح بقوّة أنّ هذه الإضافة لاتعني أنه رومي النِّجار. بل هو عربيٌّ من بني تغلب أو كلب ، ونحن نُرجّح الثاني. فتكون "الرومي" من

باب نسبة الشخص إلى مَن يواليهم أو ينزل بينهم أو يعمل لهم طويلاً . وذلك أمرٌ مألوفٌ في التقاليد العربيّة في هذا الشأن .

وبنوكلب هم أبناء قبيلةٍ عربيّةٍ نصرانيّة سكنت منطقة البادية الشّاميّة، حيث ماتزال بقاياها حتى اليوم . حاضرتُها قرية / واحة "حوّارين" قرب "تدمر" . وهي قريةٌ عريقةٌ حافلةٌ بالأوابد الأثريّة. ومنها ديرٌ كبيرٌ وكنيستان.واسمها قادمٌ من كلمة (حواريين) الأمهريّة الأصل ، التي تعني تلاميذ السيّد المسيح (ع) ، ومن هذا الطريق دخلت لغة القرآن . ويُقال أن قبر أحدهم فيها . كما كان فيها قصرٌ ليزيد . ما تزال آثاره قائمة . وأهلُ القرية يسمون خرائبه اليومَ "قصر يزيد".

المهم أنّ منصوراً هذا كان أرفع موظفي الدولة الروميّة المحلّيين رتبةً . عمله ضبط ماليّة الدولة جبايةً وصَرْفاً ، وإمساك حساباتها ، ومن ثَمّ تسديدها ، بعد كلّ حساب ، إلى خزينة الدولة المركزيّة في "القسطنطينيّة" العاصمة .

وبالنّظر لأهميّة المنصب، ومالصاحبه من صلاحيّاتٍ وسُلطةٍ واسعيَن، رأينا ابن خلدون في (المقدمة) ينفردُ بوصفه بأنه كان حاكم "دمشق" (المقدمة:٢/٢٢٦) . وهو وهمٌ منه عرف القارئُ سببه .

ومـن المؤرخين المُحدَثين المُستعربين مَـن ينسبُ إلى منصور دوراً في تسليم " دمشق " تسليماً إلى الفاتحين المسلمين

(*فتح العرب للشام* /٦٧). ونحن لا نُسلّمُ لهم بذلك ، لأسبابٍ ليس هذا المقامُ محلَّ بسطها . ولسنا نرى فيه إلا محاولةً مكشوفةً لتهوين أمر المسلمين ، وأنّهم لم يأخذوا المدينة حرباً بسواعدهم وبسيوفهم . وفي المقابل أنّ سقوطها لم يكُن عن ضعف الدولة الروميّة وسوء تدبيرها، بل عن خيانة أحد كبار موظفيها من العرب . والقارئ العارف بسير المعارك بين الروم والفاتحين المسلمين ، من قبل سقوط " دمشق " ومن بعده ، ليرى بكامل الوضوح أنّ سواعد المسلمين وسيوفهم لم تكُن تشكو من ضعف .

(٣)

الأكثر أهميّةً من هذا التدقيق التاريخاني في هُويّة وسيرة منصور، أن نقول ما يُجمعُ عليه المؤرّخون كافة ، شرقيّهم وغربيّهم ، قديمهم وحديثهم ، أنّ معاوية ما أن استلم الولاية على "الشام" حتى استبقى منصوراً في مناصبه الإدارية كلّها. أي أنّ هذا الداهية المحظوظ لم يتغيّر عليه شيءٌ بحسب موقعه في إدارة الشؤون الماليّة للدولة. فظلّت القيود ملكَ يديه ، على ما كانت عليه أيام الروم . وظلّت تُحرَّرُ باللغة اليونانيّة ، اللغة الرسميّة للدولة الروميّة . أي أنّها كانت محظورةً على العرب ، لاسبيل لهم إلى الاطلاع على ما فيها . وذلك أمرٌ غريبٌ جداً ، ما من سبيل لنا إلى فهمه وتفسيره في ظلّ وهم

انتقال السُلطة كاملةً إلى المسلمين في "الشام". فكيف يتأتّى أن تكون دولةٌ، بل حتى تاجرٌ فردٌ، قيوده الماليّة محجورةٌ عليه . إلا إن يكون ثمّةَ ما قد خفي علينا من شأنها .

ولن نبعد كثيراً حتى نقعَ على ما يُبرح الخفاء ويكشف السرّ. وما هو إلا أنّ سُلطة معاوية ، والياً على"الشام" ثم خليفةً على المسلمين ، كانت سُلطةً منقوصةً فيما يخصّ "الشام" وحده بالتحديد ، بمقتضى اتفاقٍ مكتومٍ مع الروم .

نقولُ ذلك على سبيل العُجالة . ولنُريح القارئ مؤقتاً من وِقْع السؤال الصّعب . قبل أن يأتي تأويلُ ماألمحنا إليه إلماحاً، مشفوعاً بالدليل طبعاً .

(٤)

ثاني الثلاثة سركون بن منصور(ت:٨٦هـ/٧٠٥م) . على أثر وفاة أبيه ، الذي يبدو أنه لم تطُلْ به الحياة في ظلّ الدولة الإسلاميّة في "الشام" ، ورث سركون هذا مناصب أبيه كلّها . فمن هنا نُقدّر أنّه قفز إلى المنصب وهو في ميعة الشباب . الأمرُ الذي أتاح له أن يُرافق حكمَ معاوية ثم ابنه يزيد ، ثم في الفترة المضطربة لمعاوية الثاني ومروان بن الحكم، ومَن بعدهما عبد الملك بن مروان . إلى أن توفي عام وفاة عبد الملك فيما قيل ارتجالاً. والمجموع يزيدُ على ستين عاماً. لكنّ من المؤكد أنّ أحواله تفاوتت كثيراً بين عهدٍ وعهد .

المصادرُ الإسلاميّة قاطبة تقول تلميحاً ، أو بما هو أقربُ إلى التصريح أحياناً ، أن سركون (اسمه في المصادر الإسلاميّة إجمالاً: سرجون ، كما قلنا أعلاه) كان ذا نفوذٍ قوي جداً في عهدي معاوية ويزيد. كما كان يُستشار في الأُمور الهامّة ، التي تحتاج إلى رأي ذي رأيٍ سديدٍ ، أو مَن لا سبيلَ إلى تجاهل رأيه في المعضلات . وكان دائماً ، في كلّ ما وصلنا من أخباره بهذا الخصوص ، يؤخَذُ برأيه ويُعملُ به .

من المصادر الإسلامية مايصِفُ سركون بأنه"**مولى معاوية**". وذلك منصبٌ هيّنٌ ، يجعل منه بمثابة تابعٍ له أو خادمٍ لديه . ليس له أن يتصرّفَ في أُموره إلا بما يؤمَر.

لكنّ الحقيقة التي لاريب فيها أنّ موقع الرجل كان أعلى من ذلك بكثير.

وفي ظنّي أنّ الذين وضعوه في ذلك الموقع الهيّن ، إنّما بقصد تبرئة معاوية ضمناً ، من أنه يضعُ في فريق العمل المُحيط به شخصاً غير مسلم في موقعٍ أعلى ممّا توحي به كلمة (**مولى**) .

العبارة الأقرب إلى الصحّة والواقع ، هي مانقرأه لدى كبار المؤرخين، بياناً لموقع سركون عند معاوية : " **وكان كاتبه [يعني كاتب معاوية] وصاحبُ أمره سرجون بن منصور الرومي**"

(الطبري:٥ /٣٣٠ ، ابن الأثير : ١١/٤، المسعودي: التنبيه والاشراف /٢٦١، تاريخ

خليفة بن خياط/١٤١،ابن مسكويه: تجارب الأُمم :٢٢/٢،ابن كثير: البداية والنهاية:٨/١٤٦) . على أن نفهم من كلمة "**كاتب**" مثل ماستعنيه كلمة "وزير" في الدولة العبّاسيّة . أي المُمسك كافة الأُمور العملانيّة الإجرائيّة في جهاز الدولة .

إذن، ماكان يُمثّله سركون حالة شاذّة ، لها مقتضياتها الخاصّة بهافي الدولة الأُمويّة، حيث كان الخليفة يُمسك بمقاليد الحكم كافّة، سياسيّة وتنفيذيّة وإداريّة . وعندما جاء العباسيّون استقوا من الحضارة الفارسيّة منصب الوزارة فتمايزت السلطات .

أمّا " **صاحب أمره** " ، فنحن لانفهم منها معنىً مُحدّداً ، مثل كلمة " **كاتب**" في اللغة الديوانيّة . لأنّها بنفسها لم يُـرِدْ قائلُها منها أن تعني أُمـوراً موصوفة مُحدّدَة معلومة سبقاً وسلفاً. فكأنّ قائلها لم يكن يبتغي أكثرَ من أن يودع في ذهن السامع أمراً عامّاً شاملاً. "**صاحب أمره**"، يعني المالك المُتصرّف بأُموره إجمالاً ، دون تحديد. تاركاً لخيال السّامع أن يفهم ما يتّسعُ له فهمه . أو ما يتّسعُ له علمُه من أُمور ذلك الزمان . دون أن يورّط القائل/ المؤرّخ بالخوض فيما هو من باب الاسرار، التي يدور العلم بها في مستويات خاصة ، ولا تُقال لعامّة الناس . على أنّ (الطبري:١٠٨/٦) يقول في نصٍّ متأخّرٍ زمنيّاً عن سابقه ، بالنظر لموقعه من كتابه : "**وكان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج سرجون بن منصور الرومي**".

هذا كلامٌ مختلفٌ ، من حيث أنّه يُحدّد بعض ماأجمله الكلامُ السابق. لكنّه لاينفيه، بل ربما يؤكّده ضمناً وبالضرورة . فالذي " **يكتب على ديوان الخراج** " ، بالنحو الذي بسطناه أعلاه، يُمسكُ بيده مرفقاً أساسيّاً جداً من أجهزة السُلطة. إلى درجة أنّ في وسعنا التساؤل : ماذا يبقى في يد غيره إذ يكُن المرفق المالي محجوراً عليه ؟!

هذا التركيب التحليلي ، أو التحليل الذي وصلنا إليه من تركيب معلومات مُتفرّقة ، يطرح علينا سؤالاً كبيراً :

ما هو الأمر أو الوضع السياسي الذي اقتضى من معاوية ومَن بعده حصْرَ الإمساك بماليّة الدولة بالبيت السّركوني ، بحيث انتقل آليّاً إلى سركون ، بعد وفاة والده منصور. ثم ليبقي بيده مدّةً طويلةً جداّ دون مُنازع. إلى أن أقدم عبد الملك بن مروان على ما هو أشبه بثورة سياسيّة بكلّ ما للكلمة من معنى. فانتزع الإدارة الماليّة من يد سركون . وضرب السّكّة الإسلاميّة ، كما سنعرف ؟

ممّا يجدر بنا ذكره بالمناسبة ، أنّ المؤرخين كافة ، شرقيّهم وغـربيهم ، بمقدار ما نعلم ، يمرّون سريعاً على خطوة عبد الملك. وكأنّها مجرّد قرارٍ محلّيّ بسيط ، ليست له أبعاد دوليّة . ولا علاقة له بالتوازنات السياسيّة ـ العسكريّة العاملة

في المنطقة . ويا لبُعد هذا التّصوّر السّاذج عن الحقيقة . الأمرُ الذي يشهد بأنّ هؤلاء جميعاً لم يبذلوا جهداً كافياً في قراءة المشهد بكافة مكوّناته. وهذه خطيئةٌ كبيرةٌ جدّاً في العمل التأريخي . حيث الإطار لايقلُّ أهميّةً عن الصورة .

مهما يكُن ، فإننا سنُرجئ الجواب عن ذلك السؤال الكبير، إلى مابعد التعريف بثالث وآخر السركونيين وأبعدهم أثراً فيما يخصّ عنوان الكتاب .

(٥)

ثالث السركونين الثلاثة هو منصور بن سركون . ولنصطلح ، لمصلحة القارئ ، على أن يكون اسمه فيما بقي من البحث (منصور الثاني) ، تمييزاً له عن جدّه وسميّه .

وُلد منصور الثاني في "دمشق" حوالي السنة ٣٠هـ/ ٦٥٠ م فيما نُرجّح . وسُمّي باسم عربي (منصور) . وفي هذا الاسم دليلٌ يقوّي القولَ بأنه من أصولٍ عربيّة ، في بني كلب كما رجّحنا ، أو في بني تغلب فيما يُقال . ولكنّه يُعرف بين المسيحيين حتى اليوم باسمٍ يوناني هو (يوحنّا) مُضافاً إلى "دمشق" ، حيث وُلد وعاش باكورة حياته : (القدّيس يوحنّا الدمشقي) (St.John Damascene). وهو الاسم الدّائر له في الأوساط المسيحيّة كافة حتى اليوم .

منذ الفُتوة المُبكّرة نشأت بينه وبين يزيد بن معاوية علاقةٌ متينة جداً. وتلقّى الاثنان معاً تعليماً مشتركاً على يد مُعلّمٍ أسيرٍ مسيحي ، لانعرفُ عنه إلا اسمَه (قزما الصّقلّي). الأمر الذي يبعثُ على الظّنّ أنّه لم يكن مُجرّد " **أسير**" . بل ربما كان مُفرَزاً من قِبَل جهةٍ قادرة لإعدادهما معاً الإعداد المُناسب لمُهمّةٍ في المستقبل . ثم استمرّت العلاقة المتينة بينهما في طور الشباب . حيث كانا يُمضيان معاً أوقاتاً متفاوتة بين أخوال يزيد في "حُوّارين" . كما ويترددان معاً إلى قصر (سرجون) في "بستان القط" في غوطة "دمشق". بالإضافة إلى قُراها : "دير مرّان" و "جلّق" و "ماطرون" و"بيت الرأس".

وكلُّ هذه الأماكن يتردّد ذكرها في شعر يزيد ، بوصفها مواطن ملذّاته بصحبة رفيقه الأثير .

هكذا نهضت وشيجةٌ متينةٌ جداً بين الاثنين . عمادها القرانة في السّنّ ، فالتعليم والاعداد المُشترَك ، فأوقات الحياة اللاهية التي كانا يمضيانها معاً في مجالس الخمر والملذّات . وأخيراً ما سنبسط الكلام عليه ، بل ماهو الإشكاليّة الأساسيّة التي يدور عليها الكتاب . من عملٍ سياسي ـ ثقافي مُشترَكٍ بينهما ، بعد أن بات يزيدُ خليفةً ، رمى إلى إعادة عقارب الساعة في "الشام" كلّه إلى الوراء . بالانقلاب على الإسلام والحكم الإسلامي .

سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م توفي معاوية . وما لبث يزيد أن قفز إلى سُدّة الحكم ، مدعوماً بأخواله بني كلب ، كما سنعرف . يومذاك كان منصور الثاني في حوالي الثلاثين من العمر. ولكنّه كان قد غدا مُتمكناً معروفاً من الدراسات الكهنوتيّة المسيحيّة . ألّف في اللاهوت والفلسفة والتاريخ . ثم مالبثت مؤلفاته أن غدت مرجعاً فائق الأهميّة لجميع لاهوتيي القرون الوسطى . إلى درجة أنّ توما الاكويني يستشهد بأقواله في مؤلفاته . كما وضع عدداً من الترانيم الكنسيّة ، التي لا تزال قيد الانشاد في طقوس الكنيسة البيزنطيّة . و يُقال أنه قد مهّد بمؤلفاته لنشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في "أوروبا" (ألكسي جورافسكي:الإسلام والمسيحيّة، من منشورات(عالم المعرفة) العدد ٢١٥) /٧٠) . واليوم يُعتبَر(القدّيس يوحنا الدمشقي) (St.John Damascene) آخرَ وأبرز آباء الكنيسة الشرقيّة بإجماع الباحثين اللاهوتيين .

ومع أن (منصور الثاني) عاش وكتب مؤلفاته الكثيرة في وسطٍ إسلامي، وبرعاية سُلطةٍ بعنوانٍ إسلاميّ ، فإنّه أولى عنايةً خاصّةً وعلنيّةً بإبطال الإسلام والنّيل من قرآنه ونبيّه . وفي هذا السبيل صنّف كتابه (*الهراطقة*) *De Haeresbius* ، الذي مايزال بين الأيدي . وفيه نادى بأنّ الإسلام ليس ديناً من الأديان. بل نمطاً من الهرطقة في المسيحيّة أو هو من

المسيحيّة الهرطوقيّة . لِما هنالك من تشابُهٍ بين النصرانيّة في ذلك الأوان وبين الإسلام . قبل أن يعملَ منصور عملَه على النصرانيّة الأُولى . وهو أوّلُ مَن نشر مقولة أنّ الرّاهب (بُحيرا) هو الذي أوحى للنبيّ (ص) بأن يدّعي النبوّة ، وزوّده بالأفكار الأساسيّة المُناسبة. ومازالت المقولة تتردّد في أقوال المُستعربين الغربيين . كما أشاعَ أنّ ورقة بن نوفل كان قسَّ العرب المسيحيين في "مكة" . وأنه اهتمّ بترجمة ما يُسميه الأناجيل المُنتحلَة عند منصور عن السريانيّة والقبطيّة إلى العربيّة . ومن هذا الطريق وصلت قصص الأنبياء إلى النبي (ص) فضمّنها القرآن. إلى غير ذلك من الأوهام التي لاتثبتُ للنقد .

لكنّ العجيب أنّ هذا النشاط العلني لم يلقَ أدنى اعتراض من أحدٍ في " دمشق " . وكأنّ ، بل لأنّ ، صاحبه كان مطمئناً إلى أنّه يتمتّع بحمايةٍ مطلَقَة .

وسنقفُ في الآتي إن شاء الله على المزيد من أعماله في ذلك النطاق . ممّا يدخلُ في باب التحدّي العلني لهُويّة الأُمّة والدولة . وسط صمتٍ مُطبقٍ من رجالها ، ومن حمَلَة القرآن والحديث والفقه في " دمشق " .

———

الفصل الرابع

الوضع السياسي لـ "الشام"
في فترة البحث

(تمـهيـد)

سنُخصّص هذا الفصل لبيان ماخفي من صيرورة الوضع السياسي للمنطقة . أخصُّ منها ذا العلاقة بعمود البحث بدرجةٍ ما . حيث سنكتشف أنّ سُلطة وُلاة الأمر فيها من والٍ وخلفاء ، كانت منقوصة . على الرغم ممّا هو ظاهر الأُمور من سُلطةٍ لهم مُطلقة .

(١)

ولقد قلنا آنفاً أن الخليفة الثاني ، ماأن بلغته وفاة واليه على "الشام" يزيد بن أبي سفيان ، حتى هرع بنفسه إلى "دمشق"، حيث نصب معاويةَ في المنصب الذي كان يشغله أخوه من قبله . ولقد سجّلنا هناك عجبنا من أن يركب الخليفةُ هذا المركب الصعب ، فيشخُصُ بنفسه إلى محلّ المُشكلة على بُعد الشّقّة . مع أن أمراً كهذا عولج من قبلُ ومن بُعد بما هو أهون وأيسر. كما سجّلنا حرصَه البالغ على تولية معاوية ، وإعجابه الشديد بشخصيّته ، بحيث كان يُلقّبه "كسرى العرب".

بالإضافة إلى ما هو من طبائع البشر. إذ حمل الخليفةُ من ماضيه تقديراً عالياً جداً للبيت الأُموي ، وما كان له في زمان الجاهليّة من موقعٍ مُتقدّم ، باعتباره أقوى وأغنى بطون قريش العشرة .

(٢)

ومع ذلك فإنّ علينا أن لانكتفي بهذه المؤثّرات الشخصيّة ، على أهميّتها . بل أن نبحث أيضاً في مواصفات الأحوال السياسيّة العالقة عمّا قد يساعدنا على تركيب ما يُضئ الظّرفَ إجمالاً، بما فيه ما نعالجُه الآن . أي صيرورة الوضع السياسي في منطقة البحث .

هنا تأتي فائـدةُ الإلمام بإطار الإشكاليّة التي نُعالجها. أي ، فيما يخصُّها بالذات ، ما قد وقفنا عليه آنفاً من لجوء الامبراطور الرومي هرقل إلى تدبير مُستقبلي ، رمى بـه إلى استعادة الرقعة الشاميّة إلى ملكه . حيث اصطحب جموع أربعٍ من أقوى القبائل العربيّة وأكثرها عديداً . ليكونوا أداتَه وعُدّته لليوم الموعود . لكنّ ذلك لم يحصل بسبب وفاة الامبراطور . الأمرُالذي نرى فيه مفتاح تاريخ المنطقة لعدّة عقودٍ من السنين . لكنه ، عند وفاته ، كان قد استثمر التهديد الجّدّي المُتمثّل في الجموع العربيّة الكثيفة ، التي استقرّت في مواقع غير بعيدة عن الحدود الإسلاميّة ، تحرقُ الإرمَ بانتظار اليوم الموعود ،

الذي ستنطلق فيه إلى استعادة أوطانها وبيوتها بالقوة. وذلك بأن استخدم التهديد العسكري لابتزاز السُلطة الإسلاميّة الجديدة في "الشام" . بأن " **أجبر**" منصور بن سرجون ، أي منصور الأول، الذي عرفناه آنفاً مسؤولاً عن الإدارة المالية لعموم"الشام" ، للروم ثم بعدهم للمسلمين ، ــ "**أجبره**" [هكذا] على دفع مائة ألف قطعة ذهبيّة (فتح العرب للشام/٢) . أي ما زنته نصف طنّ من الذهب (١٠٠٠٠٠ مضروبةً بـ ٥ غرام وزن الدينار يوس الرومي اليوناني = ٥٠٠٠٠٠غرام) أي نصف طنّ ذهباً . وهذا مبلغٌ فاحش جداً، دفعه منصور مُجبَراً حسب تعبير النصّ .

(٣)

النصّ يطرحُ غير سؤال :

ــ الأول:مامعنى "**أجبر**" ، وأنّى للامبراطور الرومي المهزوم أن يُجبر مسؤولاً كبيراً في الإدارة الإسلاميّة المُنتصرة على مثل ذلك العمل الذي يمسّ سيادة الدولة في الصميم ؟

ــ الثاني : من أين لمنصور ذلك المبلغ الفاحش ؟

الجواب عن الأوّل أنّه ابتزّه ابتزازاً ، ولم " **يُجبره** " إجباراً . تحت طائلة التهديد بالهجوم المُضادّ المُنتظَر ، الذي يُرادُ منه أن يقضي على الدولة من رأس ويُعيدها للروم .

وعن الثاني أنّ المال هو من عوائد المنطقة الشاميّة التي كانت تحت يد منصور .

والحقيقة أنّ هذا النصّ يؤرّخ لبداية نمط السياسة التي ستُنظّم العلاقة، طوال زُهاء نصف القرن القادم، بين ولاية "الشام" الإسلاميّة وبين الدولة الروميّة. بحيث تكون كلّ عوائد الولاية من نصيب هذه . أي أن معاوية ثم ابنه يزيد حتى بضع سنين من حُكم عبد الملك بن مروان كانوا يحكمونها حكماً مطلقاً. لكنّ عوائدها الماليّة الضخمة كانت تذهب سنوياً إلى الخزينة الروميّة في "القسطنطينيّة" .

ـ الثالث : هل إنّ هذا الحلّ السياسي قد تمّ أثناء الفترة التي قضاها عُمر في "الشام" بعد توليته معاوية ، وبعلمه وبموافقته ؟

الحقيقة أنّنا بعد أن حاولنا أن نتتبّع هذه الإشكاليّة التفصيليّة ، بإجراء ماتيسّر من مقارنات تاريخيّة ، لم نظفر بجوابٍ صريحٍ تطمئن إليه النفس .

على أنّنا ما نشكُّ إطلاقاً في أنّ الخليفة في "المدينة" كان على اطلاعٍ تام على الصيغة الجديدة. وإلا سيكون علينا أن نضرب عرضَ الحائط بالفكرة الذّائعة عنه . التي تُصوّره ، كما كان بالفعل ، حاكماً حازماً صارماً . يُراقبُ عمّالَه في الأقطار بعيني صقر، فلا تخفى عليه خافية . وربما لذلك ، أي لأنّ يدَ معاوية كانت محجورةً عن كلّ دينارٍ من عوائد "الشام" ، خصّه

الخليفةُ بذلك الراتب الشهري ، الذي أتينا على ذكره بالتفصيل الكافي آنفاً . خلافاً لسياسته مع عماله كافة بمقدار ما نعرف .

(٤)

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السياق من البحث ، أمراً يورده الباحث العراقي (صاحب يونس) ضمناً في كتابه (*معاوية بن أبي سفيان*/ ٢٣٥ـ٣٦) . حيث يورد مقادير خراج الأقطار الإسلاميّة ، الذي يصُبُّ في الخزينة المركزيّة بـ"المدينة"، على عهد معاوية ، قطراً قطراً . دون أن يأتي على ذكر خراج "الشام" بتاتاً . وطبعاً هو أخذ هذه المعلومات عن مصدرها . وما هو إلا اليعقوبي في (تاريخ اليعقوبي :١٦٢/٢ ـ ٦٣) . إذن ، فخلوُّ الكتابين من ذكرها دليلٌ على خلوّ المصادر كافة من هذا الذّكر. فكأنّهما يقولان ضمناً ، دون أن يقصدا ، أنّه لم يكن هناك ما يدخل الخزينة الإسلاميّة من خراج "الشام"، وإلا لوُجد مَن يذكره كما ذكرَ غيره .

وتفسير هذه الملاحظة بات سهلاً لمن قرأ ما سبق من كتابنا هذا. وما هو إلا لأنّ عوائد "الشام" لم تكن تدخل الخزينة الإسلاميّة المركزيّة ، شأن غيرها من عوائد الأقطار الإسلاميّة . بل تأخذ طريقها مباشرةً إلى "القسطنطينيّة". لكن لاصاحبنا هذا ، ولا أصحاب المصادر الجمّة التي أخذ عنها ، التفتوا إلى مغزى ومعنى المعلومة . مع أنها قالت أمراً هُجنةً ، يستدعي من المؤرخ السؤالَ عن علّته . وهذا يعود بنا إلى آفة أعمال

مؤرخينا. حيث يقـرأون الأخبار، فينقلونها اقتباساً دون الاهتمام بإطـارها من قبلها ومن بعدها . وبذلك يضيعُ مغزاها الحقيقي .

(٥)

مع الوقت غدت هذه الصيغة سُنّةً معمولاً بها . ومع استمرارها سنةً بعد سنة ، منحت سرجون بن منصور ، الذي عرفنا آنفاً أنه شغل المنصب بعد وفاة والده ، سُلُطاتٍ واسعة . أتت من إمساكه المُطلَق التّامّ بكافة شؤون الجباية والصّرْف في ولاية "الشام"، ليُسدّدها بعد كل حساب إلى خزينة "القسطنطينيّة". ومن الواضح أنّ ذلك ، خاصّةً الجباية ، يقتضي التدخُل في شؤون الإنتاج بالتفصيل لاقتطاع حصّة الدولة منه . الأمر الذي ، بالإضافة إلى دهائه ، جعل منه أشبه بمندوبٍ سامٍ للدولة الروميّة في الولاية . يُستشارُ ويؤخذُ بقوله في شؤون الدولة . ممّا سنرى بعضَه في الآتي . كما كُنّا قد وقفنا فيما فات آنفاً، على ما كان له من سُلطة على معاوية شخصيّاً ، بحيث وُصف بأنه "صاحبُ أمره" . كما اقتبسناه هناك وبيّنّاه .

(٦)

في هذا الإطار يمكن أن نفهم كلاماً أُثر عن الإمام علي (ع) ، حيث قال :

" **والله لو فعلها ابنُ الاصفر لوضعتُ يدي في يد معاوية** " .

هذه العبارة ، التي ماتزال محفوظةً مُردّدة شفاهيّاً حتى اليوم ، لم تجِدْ من يقول لنا ماالذي استدعى بالفعل من الإمام (ع) أن يُعلنها إعلاناً على الملأ ، دون ضرورةٍ ظاهراً . مع أنّها تقولُ لنا بالتّضمُّن أنّه كان يعلم ، بل يعرف ، أنّ هناك تهديداً جدّيّاً وخطيراً بإقدام "**بني الاصفر**" ، أي الروم ، على عملٍ عسكريّ كبيرٍ ضدّ منطقةٍ إسلاميّة . وبالتحديد ضدّ المنطقة الشاميّة ، بوصفها الوحيدة التي تملكُ حدوداً مشتركة معهم . وأنّ الأمر جِدّيٌّ وقائمٌ وخطير ، إلى درجة أنّه يستدعي منه ، عندما يحصل ، إلى تأجيل كلّ خلافٍ مُستحكمٍ مع معاوية ، مهما تكُن أسبابه وجيهةً . لمصلحة توجيه الجهد العام للتّصدّي للتهديد الخارجي الجِدّي لجزءٍ من دار الإسلام .

من الغني عن البيان ، أنّ التركيب التاريخي الذي بسطناه حتى الآن ، والتهديد الدائم بالحرب في حال توقُّف الابتزاز المالي ، يوضحُ لنا سببَ ذلك الاعلان من الإمام (ع) بنحوٍ لا لَبْسَ فيه ولا مَعْدى عنه .

(٧)

هذه الصيغة المُخزية استمرّتْ بسلاسة ودون انقطاع زُهاء عقدين من الزمان . أثناءها كان سرجون يتصرّف وكأنّه مندوبُ الدولة الروميّة في جباية فاقتطاع الضرائب لحسابها . إلى أن حصل تبدُّل سياسي في وضع المنطقة الشاميّة ووواليها .

وذلك في السنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، حيث تبدّل موقع معاوية من والٍ على منطقة ، إلى خليفة تمتدُّ سُلطته المُطلقة على كامل دار الإسلام .

في ظلّ هذا المُتبدّل الجذري ، يبدو أن معاوية لاحَ له أنّ موقعه العالي الجديد ، وما يمنحه إياه من هيبةٍ وسُلطةٍ وسطوةٍ كبرى سياسيّة وعسكريّة ، يسمح له بأن يرفع إصبعه في وجه الامبراطور الرومي. بل وأن يُعلن ، بوسيلةٍ أو بغيرها ، أنه سيمتنع عن تسديد المائة ألف ذهبية / دينايوس سنويّاً لخزينته كما كان . فسارع هذا إلى ردٍّ أراده مُزلزِلاً ، إذ " **زحف في جُموعٍ كثيرةٍ وخلقٍ عظيم** " (اليعقوبي : تاريخ : ٢ / ١٥١) . فما كان من معاوية إلا أن خضع لتهديده ، فـ "**صالحه على مائة ألف دينار** . **وكان صُلحه إياهم في أوّل سنة ٤٢**" (نفسه) . وبذلك أكّد وثبّت الصُلح التاريخي الأوّل والمكتوم . بل إننا نرى أنّ مبدأ الصُلح قد غدا الآن أصلب وأثبت ، بوصفه صُلح دولة مع دولة على أعلى مستوى في الدولتيَن .

لكن الغريب في عبارة هذا المؤرخ الثّبْت ، أنه عقّب على الخبر بقوله :" **وكان معاوية أول مَن صالح الروم**" . ممّا نعرف وبات القارئُ يعرف أنّ وصف هذا الصلح بالـ " **أوّل** " كلام يفتقر بشدّة إلى الصحّة ، وأنّه مسبوقٌ بمثله وعُمل به طيلة السنوات العشرين الماضية ، لكنّه كان مكتوما . إلى درجة أنّ خبرَه لم

يصِلْ إلى اليعقوبي .

لذلك نقول ، ما من شكٍ في أن اليعقوبي صادقٌ في وصفه بالنظر إلى ما يعرفه . وهو الذي عاش بعد واقعة الصلح هذه بقرنين تقريباً . الأمر الذي يدلّ على أنّ المسألة إجمالاً في اطّرادها الزمني ، سنةً بعد سنة ، وعقداً بعد عقد ، غائبةٌ تماماً عن أذهان الناس ، بمَن فيهم الذين رووا المادة الخبريّة التي جمعها ونظّمها المؤرخون فيما بعد . وأنّها كانت مُحاطةً بسياجٍ صلبٍ من السّـرّيّة المُطبقة ، بحيث لا يندُّ عنها شيءُ إلى عامّة الناس ، لِما فيها من خزي ومهانة . مع أنّها ، كما رجّحنا سابقاً، كانت منذ بدايتها بعلم السُلطة المركزيّة في " المدينة " .

فلنتصوّر أنّ أهل "الشام" من المسلمين يعرفون أنّ الوالي عليهم ، ومَن هو المُدبّر لشؤونهم بما فيه الصالح العامّ ، الذي حارب عليّاً (ع) في "صفين" تلك الحرب الضّروس، حيث سقط عشرات أُلوف المسلمين ، يستخذي للروم بهذه الوسيلة المُهينة . وأنه يشتري سكوتهم عنه بذلك المبلغ الطائل من المال العام سنةً بعد سنة . وهو المؤتمَن عليه بحسب الفرض والمبدأ . ثم يرونه الآن وهو يُثبّت " الصلح " بعد أن بات خليفة ، عند أوّل تهديدٍ منهم إياه بتحريك قوّاتهم .

———

الفصل الخامـس

من معاوية إلى يزيد

(تمـهيـد)

في هذا الفصل سنُنقّبُ ونتفحّصُ ماخفي من سيرتَي معاوية و يزيد . لِما لذلك من علاقةٍ بصميم البحث وإشكاليّته الأساسيّة المُبيّنة في عنوان الكتاب .

وإنني لإخال أنّ القارئ الحصيف قد بدأ يلاحظ أنّ محَطَّ بحثنا هو غالباً على الخفايا والمكتومات . ولا غـرو في ذلك ولا تثريب ، فنحن نبحثُ في الوجه غير المَرأيّ من تاريخنا المكتوب . حيث تكون سُلطة الدولة على التسجيلات التاريخيّة ضعيفة أومعدومة . فيندُّ من هنا وهناك نُتفُ أخبار. إن كانت بالمقدار والنمط المُلائم يمكننا أن نُركّب منها تاريخاً مختلفاً عن التاريخ السُلطوي ، الذي يصنعه صانعوه لحسابها وبما يُرضيها.

والحقيقةُ أن مُجمل كتابنا هذا هو من هذا القبيل .

(١)

من الثابت والمُتسالَم عليه أن معاوية لم يتزوج ولم يُنجب حتى تجاوز الأربعين من العمر. ومن المؤرخين مَن يُلمّحُ إلى أنّه كان قد فقد قدرته على الانجاب بسبب سُمٍّ دُسّ له ، نجا منه فاقدَ الفُحولة . لكننا نلاحظ أن لا ذكر لذلك عند من

كتبوا سيرته إلا بمناسبة الحديث على صدوفه عن الزواج . مع أن دواعي ذكر واقعة التّسميم قويّةٌ بنفسها لو كانت صحيحة . لذلك فإننا نرتاب بهذا التفسير لصدوفه عن الزواج . مع اعترافنا بأنّه لا بُـدّ من سببٍ ما من أسبابٍ جمّة جسمانيّة أو نفسانيّة.

ثم إذا به سنة ٢٥هـ / ٦٤٥ م ، أي بعد توليته على "الشام" بخمس سنوات تقـريباً، يتزوّج (أو يُزوّج؟) بامـرأةٍ نصرانيةٍ من بني كلب ، الذين نعرف ، ويعرفُ القارئ ممّا سبق ، أنهم كانوا ، وما يزال أخلاقُهم ، يقطنون بلدة / واحة "حُوّارين" في البادية قرب "تدمر". اسمها ميسون بنت بحدل الكلبيّة.

إلى هنا والأمر ضمن المفهوم والمقبول . فلعلّ معاوية ، بعد أن استقرّت أحواله ، حنّ إلى الحياة الزوجيّة وثاني زينتَي الحياة الدنيا . فذلك ، على كلّ حال ، طبعٌ مركوزٌ في البشر .

لكنّنا مالبثنا أن رأينا ميسون تُغادر نعيم قصر الوالي والحياة الرّافهة فيه ، لتعود إلى قريتها الصحراويّة . حاملةً في رحمها جنيناً . والظاهر أنّها لم تـرَ "دمشق" بعد ذلك أبدا . والمصادر لا تقول كم لبثت على فراش معاوية . لكنّها تُجمعُ على أنّها رجعت بمجرّد أن بان حملُها. وذلك أمرٌ يمكن أن يتمّ في الزمن القصير، وبغير وسيلة . كما أنّها تُجمع أيضاً على

أنه هو الذي طلّقها . أي أن أمرَ خروجها وعَوْدها إلى بلدها ومسقط رأسها كان بمُبادرةٍ منه . والله أعلم .

تلك المُتوالية ، من الزواج المُفاجئ بعد طول صُدوف، إلى الطلاق المُفاجئ أيضاً بعد زواجٍ قصيرٍ وظهور الحمل ، يطرح أسئلةً سنعود إليها بعد قليل .

من بعدُ بدا وكأن قابليّةَ معاوية انفتحت على الزواج . فتزوّج بالتوالي ثلاثَ نساء ، كلّهن عربيّات مسلمات ، وكلّهنّ من بيوتاتٍ معروفة . أنجب من اثنتين منهن، ابنين ذكرين عبد الرحمن وعبد الله توفيا كلاهما صغيرين ، وبنتين رملة وصفيّة ، وحدهما عاشتا طيلة حياة أبيهما على الأقلّ .

أمّا(طليقته) ميسون فقد استقرّ بها المقام نهائيّاً في "حُوّارين" حتى أتمّت حملها وولدت ذكراً . بعدها اختفى ذكرُها من التاريخ بعد أن أدّت دورها فيه ، ربما بالرغم عنها . والوليد سُمّي يزيد ، وهو اسمٌ عريقٌ في البيت الأُموي .

وابتداءً من هذه الواقعة الهيّنة يبدأ مسارٌ جديدٌ لبحثنا وميدانه .

(٢)

ثمة سلسلةٌ من الملاحظات المُزعجة ، تفرضُ نفسها على الباحث الذي لايرضى بأقلّ من الجواب الذي يُسكتُ كلَّ هواجسه . نذكرها بالتوالي الزمني :

١ ــ ألمحنا إلى أن زواج معاوية ، وإنْ في سنّ الكهولة، أمرٌ مفهومٌ بالنظـر إلى أنّ امرئً في موقعه الشّخصي ، وبوصفه مُمثّلاً لقبيلته وما كان لها من موقعٍ عالٍ ، يمكن أن يبدأ في هذه المرحلة من العمر التفكيرَ في الخلَف .

لكنّ السؤال المُقلق هو : لماذا (اختار) لزواجه فتاةً غير مسلمة وشبه بدويّة ، مع أنّ هذا الاختيار يتعارض مع الغرض المفروض ؟ أم أن الأمر ، يا تُـرى ، قـد تمّ عن غير اختيار، بل فُرض عليه فرْضاً أن يُنجب من هذه القبيلة بالذات، مثلما فُرضت عليه أُمورٌ أخطر بالقياس الآني ؟

لن نُجيب الآن على السؤال . تاركين لِما سنعرفه من تطورات الأحوال أن يتولّى الجواب .

٢ ــ من الثابت أنّ معاوية لم يُظهر أدنى اكتراث بولادة (ولده) المؤمّل المُرتجى يزيد . بل ترك أمره لأمّه أن تتصرّفُ به بما تشاء وكيفما تشاء . ولو انّه كان يتصرّفُ تجاهه كأبٍ لاختلف الأمر، ولضمّه إليه ، ولأعدّه الاعداد المُلائم للمنصب الجلل الذي يرجوه منه وله .

هكذا شبّ يزيد بين أخواله في "حُوّارين"، إلى أن تجاوز سنّ الفُتوّة . ثم ما أن بلغ الفُتوّة أو الشباب حتى تسلّمه منصور بن سرجون ، القدّيس يوحنّا الدمشقي فيما بعد . ما سنُفصّلُ الكلامَ عليه تفصيلاً في الآتي إن شاء الله .

٣ ــ قُلنا آنفاً أنّ معاوية قد تزوّج بعد ميسون ثلاثَ زيجات بالتوالي . وما من شكٍّ لدى القارئ الحصيف ، الذي عرف ما سبق من سيرته ، أنّ تلك الزيجات المتوالية لم تكن لحاجات جسده ورغباته ، وهو الذي لم نرَهُ يخضع لها زمان الشباب ونزواته . بل إنّه ليراه ، ونراه معه ، كأنّه يُسابق العمرَ لغرضٍ مختلف . انكشف بكامل الوضوح عندما وُلد له ابنه عبد الرحمن ، من زوجته الثالثة فاختة بنت قرطة بن عبد شمس . فتكنّى باسمه " **أبو عبد الرحمن** " . وهي الكنية الدّائرة له حيث يُذكَر في المصادر كافة دون استثناء . أي أنّه أبى بإصرارٍ مدهشٍ حافلٍ بالمغازي أن يتكنّى باسم بِكره الشاب الوحيد الحيّ يزيد ، حتى بعد الوفاة المُبكّرة لابنه عبد الرحمن .

وإخال أننا لسنا بحاجةٍ إلى أن نقرأ مابين السطور كيما نشُمّ من ذلك الإصرار رائحةَ موقفٍ من بنوّة يزيد له . لكنّ عبد الرحمن مات في صباه ميتةً غامضة ، تسكتُ المصادرُ عن ذكر سببها وملابساتها ، مثلما سيموتُ أيضاً ابنه الآخر عبد الله . الأمرُ الذي يُقوّي ارتيابنا بأن هناك مَن يُحرّك الأحداث لغايةٍ محسوبة ، من زواجه المُريب المؤقّت بميسون ، فانفصالها عنه بمجرّد أن بان حملُها على فراشه ، إلى الوفاة التي لا تقلُّ ريبةً لابنيه عبد الرحمن وعبد الله بالتوالي . نرجو أن تبينَ مع تقدُّم البحث .

(٣)

وفي المُقابل لم نرَ يزيداً يُعامل معاوية مُعاملة الابن مع أبيه . قضى فترة صباه وفتوّته بين أخواله في "حُوّارين" . ثم قضى مرحلة الشباب مع صاحبه ورفيق حياته اللاهية منصور بن سرجون في مجالس اللهو والشراب ، مُتنقّلَين بين أنحاء "الغوطة" وقُراها ، كما سبق وأنْ قُلنا أعلاه في الفصل الثالث . ثم عندما انصرف منصور بعدُ إلى الدراسات الكهنوتيّة ، متعلّماً ثم معلّماً ومُصنّفاً ، ظلّ يزيد لصيقاً به . ولم يُذكَر أبداً أنّه شارك أباه الاهتمامَ بشأنٍ من شؤون الحكم أو غيره .

أمّا ما يتردّد في مناسباتٍ كثيرة ، أنّه كان ضمن أوّل غزوةٍ إسلامية للرُّوم ، وصلت إلى أسوار "القسطنطينيّة" سنة خمسين ، ومعه الصّحابي أبو أيوب الانصاري (ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق:٦٥ /٤٠٥) ، وبُني على ذلك أنه من أهل الجنة ، بمعونة حديثٍ كذبٍ بهذا المعنى ، منسوبٍ إلى النبي (ص) ، ــ فذلك كلّه بالتأكيد من تزويقات صُنّاع الأخبار ووُضّاع الأحاديث لحساب مَن يرجون نوالهم ورضاهم ، لأغراضٍ غير خفيّة .

كيف يمكن أن يخطر في بال امرئٍ له أدنى معرفة بالجغرافيا الطبيعيّة والسياسيّة للمنطقة ، وبميزان القُوى العسكريّة فيها يومذاك، أن يُصدّق أن قوةً إسلاميّةً غازيةً تجتاز بالقوّة

المسافة الهائلة الفاصلة بين حدود الدولة الإسلاميّة يومذاك وبين عاصمة الدولة الروميّة . فتجتاز"آسية الصغرى" من الشرق إلى الغرب دون أن تلقى مُقاومةً تُذكَر؟ ومن الثابت الذي لا ريب فيه أن ذلك أمـرٌ لـم يحصل بالتأكيد قبل الإمارة العثمانيّة (الامبراطوريّة العثمانيّة فيما بعـد) ، وأعمالها العسكريّة المتوالية للاستيلاء على "القسطنطينيّة" ، الذي لم يحصل إلا بعد قرون .

(الغزوة) الوحيدة التي شارك فيها يزيد ضد الذين يُسمّون في الأخبار "الرّوم" ، هي يوم سـار مع الغُزاة إلى حدود "كليكية" ، إلى أن تفشّى بينهم وباء الجُـدري (" المُوم " في النصّ الآتي) فتركهم لمصيرهم البائس ، وقفل راجعاً إلى "دير سمعان" غير بعيدٍ عن " دمشق " ، منصرفاً إلى ملذّاته مع محظيته (أُمّ كلثوم) .

وبالمناسبة قال :

إذا اتكأتُ على الأنماط مُرتفقاً بدير سمعان عنـدي أُمُّ كلثومِ
فما أُبالي بما لاقـت جموعهمُ بالفرقدانة من حُمّى ومن مومِ

(تاريخ مدينة دمشق:٦٥ /٤٠٥)

امرؤٌ بهذا المستوى من الحقارة ، وغياب أي هدفٍ سامٍ بحياته وبأعماله ، لا يُمكن أن يُعرّضَ نفسه لمشقّات الحرب وأخطارها ، فكيف بتلك العمليّة المستحيلة نحو "القسطنطينيّة" !

كما أننا ننفي بقوّة ، ماتقوله بعضُ المصادر، أنّه ولي إمارة الحج ثلاث سنين متواليات ، مرّةً سنة إحدى وخمسين ، ثم مرتين بعدها (نفسه :٤٠٦/٦٥) . بل نقطع أنّه لم يرَ " الحجاز" ومشاهدَه في حياته على الإطلاق . ولو انّه فعل لذُكرت له هذه (الفضيلة) ، بهمّة الذين انهمكوا في تزويق صورته .

ثم أنّه لم يكترث على الإطلاق بـ (أبيه) أثناء مرضه الأخير، حيث قضى مدّةً طريح الفراش يُعاني من شللٍ نصفي ، أودى به إلى عَقْرٍ مؤلم (" قُرحة " حسب النّصّ) ، نتيجة المكث الطويل قيد الفراش . تاركاً أمر تمريضه لأُختيه (الذهبي: تاريخ الإسلام ، عهد معاوية / ٣١٧) .

بل وصل به تجاهله إياه إلى حدّ أنه لم يهتمّ بأن يؤدّي واجبه الأخير نحوه ، بأن يحضر جنازته على الأقلّ . بل بقي مُرابطاً في "حُوّارين" وكأنّ الأمر ليس يعنيه من قريبٍ ولا من بعيد . مع أنّ واقعة الوفاة لم تكُن فجأةً . بل كانت مُتوقّعةً بين يومٍ وآخَر ، نظراً لوضعه الصحّي المُهلك في الأشهر الأخيرة من حياته كما عرفنا . فكان أن ولي الصلاةَ عليه قائدُ شرطته الضحّاك بن قيس الفهري (المصدر نفسه / ٣١٧) . فكأنْ لم يكُن في "دمشق" يومذاك من أهل الدّيانة وحمَلَة العلم ، ومن ذوي قُرباه الكُثُر، مَن يُكرّم (أمير المؤمنين) التكريمَ الأخير،

إلا حارسَه الأوّل ، أو الذي هو رئيس حَرَسه ، وكان المسؤول إبّان حياته عن أمنه الشخصي . وتلك من أغرب الوقائع.

(٤)

خلاصةُ القول : إنّه على الرغم ممّا لمسناه من مساعٍ حثيثةٍ لتزويق سيرة معاوية ويزيد ، وما ذكرناه ليس إلا غَيْضٌ من فيض ، وبعضُها من المُضحكات (انظر، مثلاً ، تاريخ مدينة دمشق : ٦٥/ ٣٩٨ وما بعدها عدّة صحائف) ، ــ فإنّ النتيجة الواضحة ، التي يخلُصُ إليها المتأمّل من مُجمل ما قد بسطناه من مُلابسات مُتآزرة ، يُكمل بعضها بعضاً ، أنّ ثمّة أسبابٌ قويّةٌ تُحرّك الرّيب وأكثر في أنّهما كانا حقاً أباً وابناً . والأبُ بالخصوص من بينهما لم يُقصّر في التعبير عن هواجس نفسه، على الأقلّ ، من بنوّة يزيد له . وإن هو كظم دخيلته فلم يُصرّح بها لأسبابٍ معنويّةٍ غير خفيّة . لكنّ إصرارَه طيلة حياته على التّكنّى بابنه عبد الرحمن الذي فقده صغيراً دون سواه ، ينطوي على دلالةٍ مُزدوجة : خيبة أمله وربما غصّةَ حلقه ، على الرغم من سعيه مراراً وتكراراً ، من أن لا يكون له ولدٌ صريح البنوّة له يمحضه أُبوّته ، ويكون له الخلَف المؤمَّل . ثم اضطراره اضطراراً إلى السكوت ، لاعتباراتٍ معنويّةٍ غير خفيّة ، على الطريقة الفجّة في فرْض هذا (الولد) عليه فرْضاً ، باستيلاده على فراشه .

ثم أنّ يزيد لم يُقصّر من جانبه في التنصُّل عملانيّاً من مُقتضيات العلاقة بين ابنٍ وأبيه . لا أقلّ من أنّه تجاهله حيّاً وميتاً كما رأينا .

***

في فصلٍ تالٍ سنُمعن النظر مُتفحّصين أمرَ وصولَ يزيد إلى الخلافة : ما أحاط بها من ملابسات ، ومَن كان وراءها ، والأكثر أهميّةً ما كان وراءها .

الفصل السادس

معاوية أميراً وخليفة

(١)

أخيراً وبعد حياةٍ حافلة ، مكث فيها عشرين سنةٍ أميراً مُطلَقَ الصلاحيّة على "الشام" ، وعشرين تالية خليفةً ، مات معاوية في شهر رجب سنة ٦٠هـ / شباط ، فبراير ٦٨٠ م ، تاركاً وراءه إرثاً ثقيلاً .

كان معاوية في سياسته ، بل حتى في علاقاته الشخصيّة بالرجال ، رجل تسويات . ليس يحسم أمراً ، بل هو دائماً يبحثُ عن تسوية ، مهما تكُن مؤقتة ، ومهما تكُن لغير ما مبدأ . اللهم إلا المُحافظة على موقعه الشخصي على رأس السُلطة . وقد عبّر هو عن هُويته هذه بصدقٍ عجيبٍ في كلمته السّائرة : " **لو كان بيني وبين الناس شعرةٌ ما قطعتُها ، إن شدّوا أرخيت ، وإن أرخوا شددت** ". ومن هنا أيضاً وصفه الواصفون بالحلم . وما في الأمر من حلمٍ ولا من حليم ، وإنما مواقف خضع فيها للشّدّ فأرخى . المهمّ أنه أرضى الآخَر بمعسول الكلام رضىً كاذباً ، دون أدنى خسارةٍ له بالمعمول .

ويمكن لمَن يهمّه الأمر أن يحشد عشرات الأمثال على

نظير ذلك الذي قُلناه .

لكن ثمّة أمران في الإرث الثقيل لمعاوية ، عمادهما ، كغيرهما من ضروب سياسته ، سياسةُ التسويات المؤقتة / الإرخاء والشّدّ ، بيد أنّ حجمهما الكبير تركهما مرشّحيَن دائماً للانفجار. الأمرُ الذي يدلُّ على أن هذا النمط من المعالجة قد ينجح في الأُمور الشخصيّة أو الداخليّة الهيّنة . لكنّه سيفشل حتماً في الأُمور الكبيرة ، لأنّه يؤجّلُ المُشكلة فقط ، بل إنّه قد يُغري الآخَرَ بالمزيد من الضغط في سبيل تثبيت مكاسبه أو المزيد منها . كما قد حصل بالفعل .

(٢)

أوّلُ الأمرين قضيّة العلاقة مع الدولة الروميّة .

فلقد رأينا آنفاً أن معاوية عالجها بأُسلوبه الأثير. بأن أرخى حيث شدّوا، فتنازل للروم عن أهمّ خصوصيّتيَن للدولة :

ــ الحقّ الحصري في الجباية والصّرْف العامّيَن .

ــ الحقّ الآخَـر، الحصري أيضاً ، في استعمال القـوّة المُسلّحَة ضدّ العدو ، أو في بسط الأمـن حين الاقتضاء .

أي أنّه اشترى السّلام الخانع من العدو، بدلاً عن استعمال القوّة ضدّه ، مع أنّها كانت طوع يديه لو شاء . وذلك بالتنازل له عن عوائد ولاية "الشام" طيلة مدّة السنوات العشرين في ولايته / إمارته عليه.

ثم أنّه عندما وصل إلى سُدّة الخلافة ، وحدّثته نفسه بأنه بات أكبرَ وأقوى ، ولم يعُد يليقُ بحاله من أن يستمرّ بحالة الخضوع الذليل ، امتنع ، أو لوّحَ بأنّه سيمتنع ، عن تسديد الجُعالة السنويّة المعلومة لـ "القسطنطينيّة"، فسارع الروم إلى الحشْد تلويحاً بالهجوم الآتي . فما كان من معاوية إلا أن (أرخى) كعادته حين يشدُّ الآخَر، عائداً إلى سيرته الأُولى. ثم لم يعُد إلى مثلها أبدا . بل التزم بتسديد مائة ألف دينار يوس سنويّاً إلى الخزينة الامبراطوريّة ، طيلة العشرين سنة التالية التي قضاها على سُدّة الخلافة. ثم لمّا مات ترك ذلك الوضع المُعلّق إرثاً برسم مَن سيخلفه .

ولا يغترّنّ أحدٌ بما تحفل به كُتُبنا من ذكرٍ لغزواتٍ سنويّةٍ ، يشنّها المسلمون في عهده على مَن تُسمّيهم" **الرّوم** " . بحيث باتت سُنّة موسميّةً ، بين غزواتٍ صيفيّة "صائفة"، وأُخرى شتويّة "شاتية" . الأمر الذي قد يوهمُ بسياسةٍ لمعاوية تجاه الروم ، مختلفة تماماً عن ذلك الذي عرضناه أعلاه .

ذلك أنّ الحقيقة أنّ تلك الغزوات كانت تصُبُّ بلاءها فقط على الشعوب البائسة ، من تُركٍ وأرمن وكَرْج وديلم ، التي تقطن سُهوب " آسية الوسطى " وجوارها ، لغير ماغرض ، اللهم سوى السّلب والنّهب والسّبي. وكثيراً ما رجعت كتائب الغُزاة ، أيامَ معاوية ومن بعده أكثر، تسوق جموع السبايا

المساكين ، من فتيانٍ وفتيات ، مُسلسلةً لتُباع عاريـةً في سوق النخاسة لغرض المُتعة أو الخدمة. وإنّما دأب المؤرخون على القول أنّ تلك الغزوات كانت ضدّ "الرّوم" ، فلأن تلك البقاع ، وما بعدها بمسافةٍ طويلة ، كانت ، حتى أمدٍ قريب من تاريخ النصوص ، من جملة توابع أو أملاك الدّولة الروميّة .

الأمرُ المؤكّد والثابت أنّ تلك الغزوات لم تقترب أبداً من الحدود الحقيقيّة للدولة الروميّة وعاصمتها "القسطنطينيّة" . وأنّ هذه لم تعترض أبداً على تلك الغزوات العالقة طوال سنين، مع أنّها كانت تدورُ على أرضٍ وبشرٍ تابعين لها . وكأنّما كان هناك نوعٌ من التّباني المكتوم ، يرسمُ على خريطة المنطقة حدودَ حرّيّات الدولة الإسلاميّة في الغزو ، ربما في مُقابل الجراية السنويّة لـ "القسطنطينيّة" .

والعارف بعقابيل هذا السلوك النّاشز، وما أودى إليه مع الوقت من سيطرة العناصر العسكريّة على السُلطة ، التي كانت مادتُها الأُولى جموعُ تلك السبايا ، ــ ليعرفُ جيّداً أنّنا ما نزال ندفع رصيد تلك السياسة الغاشمة الخرقاء حتى اليوم .

(٣)

ثاني الأمرين من تراث معاوية الثقيل قضية خلافته .

والذي نُرجّحه بقوّة ، أنّ معاوية لو كان له مَبرَحٌ عن ابنه الوحيد يزيد إلى غيره ، لاختلف الأمرُ كثيراً . لِما عرفناه

من ارتيابه بمُلابسات حمْل أُمّه به. ثم للسلوك الشّائن والعلني ليزيد ، بالإضافة إلى شبكة علاقاته صغيراً وكبيراً . وكلاهما لايُهيّآنه ، وإن في الشكل على الأقلّ ، لمنصب الخلافة .

لكلّ ذلك فإننا رأينا رجلَ معاوية للمُهمات الصعبة ، زياد ابن أبيه ، يأبى أن يكون هو الذي يُنظّمُ أخْذ البيعة في " البصرة " ليزيد بعد أبيه . وينصحه بأن يأمر ابنه بأن يتخلّقَ بأخلاق الصالحين حولاً أو حوليَن، أملاً بأن "**تُموّهَ على الناس**" ، على ما قال . أي أن يُموهوا عليهم أمر يزيد ، ابتغاء أن يوهموهم بأنه قد استقام بعد طول اعوجاج (تاريخ اليعقوبي:١٥٣/٢) . أمّا واليه الداهية على "الكوفة" المُغيرة بن شُعبة ، فإنّه كان قد سبق وأن بادر فقصد معاوية أثناء فترة مرضه إلى " دمشق " ، ليقول له من كلامٍ طويل : "**كنتُ قد دعوتُ أشراف الكوفة إلى البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين ، فأجابوا إلى ذلك ، ووجدتهم سِراعاً نحوه** " (نفسه) . فطلب منه أن يرجع إلى "الكوفة" ويُتابع ما بدأه .

والذي لاريبٍ فيه عندنا ، أن المغيرة في هذا الطّرح كان يُخادع معاوية لغرضٍ في نفسه، لم يُخفِه في ذيل كلامه. وأنّه لم يدعُ أشرافَ "الكوفة" ، ولا غيرهم ، إلى البيعة ليزيد ، فضلاً عن أن يكونوا قد استجابوا له . وهي التي كانت تتحفّز للنهوض ما أن يموت معاوية. وأنه في خداعه المكشوف له ، كان يستغلّ الحالة الذهنيّة المُضطربة للخليفة المُدنَف . ومن

المؤكّد أنّه طوى صفحة المسألة نهائيّاً من بعد . ربما لخروج القضيّة جملةً وتفصيلاً من التداول بسبب وفاة معاوية .

لكنّ معاوية من جانبه ، وهو الذي يعرف المُغيرةَ وأحابيله جيّداً ، لم يكُن في وُسعه إلا أن يدفعه عنه بذلك الجواب التّخلُّصي .

(٤)

الذي نُرجحه ، بل ونذهب إليه ، أنّ معاوية لم يأخذ البيعة ليزيد ، كما أنّه لم يُولّه ولاية العهد بكتابٍ منه إلى أهل "دمشق" . ولو انّه فعل أيّاً منهما لاشتهر وبان ، ولكان هو الذي يُذكَر دون سواه بل قبلَه . ولم تضطرب الأخبار عنه بين هذا وذاك ، كما نقرأُها اليوم في كافّة المصادر .

ومن الأمثلة الجمّة على ذلك الاضطراب ، ذي المغزى الذي لايخطئه العقلُ النّقدي ، أن ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق: ٣٩٧/٦٥) يسوقُ الخبريَن المختلفيَن المُشار إليهما أعلاه في الصفحة نفسها . مع أنّهما مُتعارضان ، فوجب تساقطهما . لكنّه أثبتهما كلاهما دون حتى دون ما تعليق . وذلك من آفات سطوة النقل على العقل النقدي .

في الخبر الأوّل يقول أنه (يزيد) : "**بويع للنصف من جمادى الآخرة سنة ستين**" . أي أنّ البيعة المزعومة قد حصلت قبل أيامٍ معدودات من وفاة معاوية (ت : أوّل شهر رجب سنة

٦٠ هـ) . وذلك أمرٌ في معنى يقربُ من الاستحالة ، بسبب الحالة البالغة السوء التي كان يُعاني منها في الأشهر الأخيرة السّابقة على وفاته . بحيث أنّه فقد القُدرة على ضبط سلوكه ، لِما كان يُعانيه من شللٍ نصفيّ ، بالإضافة إلى آلامٍ مُبرحة ، بسبب العَقْر/ الـ (**"قُرحة"**) التي كانت تأكل جسده المَهيض .

امرؤٌ بهذه الحالة من الاحتضار الطويل المؤلم ، لن يكون في وضعٍ يسمح له بأن يصرف همّته وجُهده إلى أمرٍ مُعقّدٍ ، بحجم تنظيم بيعةٍ عامّة ، الأمرُ الذي تجنّبه عامداً قاصداً أثناء قوّته.

أمّا في الخبر الثاني فيقول ابنُ عساكر: " **ولاّه أبوه ولاية العهد في حياته** ". أي أنّه لم يكُن ثمّة من بيعةٍ من الناس . بل مُجرّدُ إرادةٍ شخصيّةٍ من معاوية بتولية العهد ، كانت كافيةً بنفسها "**فولي الأمر من بعده**" . وهذا مختلفٌ ، يقتضي نفي الأول . لولا أنّ هذا ضعيفٌ بنفسه .

(٥)

هذه النتيجة هي ، في بعض وجوهها ، في صالح صورةٍ مُختلفة لمعاوية . فهي :

ـــ أوّلاً : تُظهره حازماً في مُقابل المساعي الحثيثة لعُملاء الروم الداخليين ، ابتغاء إيصال ربيبهم يزيد إلى سُدّة الخلافة . أي أنّه ، هذه المرّة فقط ، تخلّى عن سياسة التسويات

(الشّدّ / الإرخاء) . بأن ترك أمر السُلطة من بعده همْلاً وليكـُن ما يكون .

كان ذلك منه جُهْد العاجـز . في ظلّ حالة ضعفه جسديّاً وسياسيّاً ، بالقياس إلى قوّة السّاعين إلى تمكين يزيد من منصب الخلافة .

لذلك رأينا يزيداً ما أن استولى على السُلطة ، حتى كان أوّل إجراءٍ سياسيّ اتخذه ، أن أمر واليه على "الحجاز" بأن يأخذ البيعة العامّة له من الناس . خصوصاً من الإمام الحسين (ع) ومن عبد الله بن الزبير. وكان ذلك بداية انفجار الأزمة الكامنة ، ومن ثَمّ تدحرجت إلى يوم "كربلا" . لتنتهي إلى القضاء على يزيد ، بل البيت السفياني كلّه تقريباً . وهكذا انتهى مشروع الرِّدّة الذي كان يعمل عليه عُملاء الروم ، بعد أن اقترب كثيراً من أهدافه . ولو انّه كانت له بيعة سابقة في رقاب الناس لَما ركب ذلك المركب الخشن .

ذلك ما سيكون علينا أن نُفصّله تفصيلاً في الآتي إن شاء الله .

ــ ثانياً : تُبرّئـه من المقولـة الشائعة ، التي تنسبُ إليه ظُلماً أنّه الذي أسّس لسابقة المُلك العَضوض الوراثي في الإسلام . لأنّ يزيداً استولى على السُلطة ، بعد وفاة معاوية ،

بالقهر والغلبة ، أي أنّه ما كان ثمة من دورٍ لمعاوية في الأمر ، كما سنُبيّنُ في الفصل التالي .

على أنّ ذلك لم يكُن من معاوية عن عفّةٍ وزُهدٍ وسَداد . بل لو انّ ابنيه الآخريَن الحقيقييَن ، اللذين ذهبا ضحيّة التحضير لمشروع الرِّدّة فيما نظن، كُتبت لهما الحياة، لكان من الأرجح أن يسعى بكل ماملكت يداه إلى توريث أحدهما منصبه .

———

الفصل السابع

يزيد خليفةً

(١)

السؤال الأوّل الذي يطرح نفسه علينا الآن ، وطبعاً على القارئ الحصيف معنا :

إذا لم يكُن معاوية قد أخذ البيعة ليزيد ، ولم يولّه عهده بأية وسيلة ، كما انتهى بنا إليه البحثُ في الفصل السابق ، فكيف ، إذن ، صعد إلى سُدّة الخلافة ؟

كيف بينما هو مُرابطٌ في "حُوّارين" بين ذوي قُرباه ، مُمتنعٌ عن حضور جنازة (أبيه) ، مع ما لذلك من معنى غير لائقٍ بحقّه ، في لحظةٍ يحتاج فيها إلى ما يُحسّنُ صورته لدى الناس ، إذا به دون مقدمات على سُدّة الخلافة ؟!

الجواب الذي سيُفاجئ القارئَ كما فاجأنا : إنّه استولى على السُلطة استيلاءً ، بما يُشبه من بعض الوجوه ما نُسمّيه اليومَ انقلاباً بواسطة القوّة المُسلّحَة .

ذلك أنّه ما أن فرغ القوم من دفن معاوية ، أو بُعيده بمدةٍ غير طويلة ، حتى دخل يزيد "دمشق" بما يُشبه الاقتحام ، معه جُموعٌ كثيفةٌ من أخواله بني كلب، قادمين من "حُوّارين" "**رافعين شعاراتهم وعلاماتهم**" (تاريخ مدينة دمشق : ٦٥ / ٢٩٥) . وبدأ

يتصرّف ويأمر وينهى ، بوصفه الخليفة الجديد . ولم يذكر أحدٌ في الأثناء لابيعةً ولاتوليةَ عهد ولا مَن يحزنون .

وربما في ذلك الجوّ المُحتدم ، وتحت وطأة الضغط البشريّ المُفاجئ الكاسح ، وربما التهديد الصّريح أيضاً ، بايعه بعضُ ذوي الشأن من أهل "دمشق" . الأمرُ الذي قد يُفسّر ما تقوله بعض المصادر،أنّ البيعة ليزيد إنّما تمّت بعد وفاة(أبيه). كما أنّه يُفسّر لماذا امتنع هو عن حضور جنازته . لقد كان في "حُوّارين" يُعِدُّ ويستعدُّ للعمليّة الصّاعقة ، التي ستفرضه خليفة بالوسيلة التي تناسب مقاصده ، دونما انتظار بيعةٍ ومُبايعين.

(٢)

من الغنيّ عن البيان، أنّ ذلك العمل الانقلابي لم يكُن ابن ساعته. بل جرى التحضير له بعناية ، منذ أن بان للذين نظّموه وأعدّوا له قُرب نهاية معاوية . وأنّ كلَّ ذلك فلمقصدٍ يتجاوز بكثير قضيّة تمكين شخصٍ من سُدّة الخلافة ، وإنْ يكُن هو الذي أعدّوه لهذه اللحظة ، إلى مستوى العمل الجاري الإعداد له باتجاه إعلان الرِّدّة ، بحضوره وحمايته ، على كلّ نتائج فتح المسلمين "الشام" . وفي هذا السبيل عمدت جُموعُ بني كلب إلى أن يكون اقتحامهم "دمشق" مُرفَقاً برفع "**شعاراتهم وعلاماتهم**" . ومن المؤكّد أنّ تلك الشعارات والعلامات لم تكُن (لاإله إلا الله محمد رسول الله) . وأنّ امتناع يزيد عن حضور

الجنازة ، فلأنّه كان يرمي إلى منح استيلائه بهذه الوسيلة على السُلطة ذلك المعنى الذي عبّرت عنه تلك الشعاراتُ والعلاماتُ صراحةً ودون أدنى مُواربَة . الأمرُ الذي لن يتمّ له ولهم إن هو شارك في الجنازة مُشاركة مَن يقضي الحقّ الأخير للمُتوفّى .

(٣)

من الغريب العجيب ، أن بعض المصادر، التي وقفت على واقعة استيلاء يزيد على السُلطة بتلك الوسيلة ، قد اكتفتْ من ذكرها بسطريَن اثنين دون أي تعليق . وكأنماهي واقعةٌ تافهةٌ لا معنى لها ولا أثر. كما أنني لم أرَ أحداً من مؤرخينا المُحدثين قد قرأها القراءة التاريخيّة المُناسبة . اللهم إلا كاتبٌ عراقي اسمه رشيد السراي ، ضمن مقالةٍ لم نرَها إلا على الشبكة العالميّة ، حملت عنوان " **القديس يوحنا الدمشقي والإساءة للرسول** " . وصف فيها تسلُّم يزيد الخلافة ، بأنّه قد تمّت " **بالقهر**" ، هكذا دون أدنى تفصيلٍ أو بيان .

انظر موقعه (https:kitabat.com)

وبذلك أتت ملاحظته العابرة فاقدةً للمعنى بالنسبة للقارئ الخالي الذهن من معنى ومغزى الواقعة ، على النحو الذي بسطناها . بينما نرى غير هذا وأُولئك ، وقد ملأوا الصحائف قديماً وحديثاً في بيان (شرعيّة) خلافة يزيد . للبيعة له في حياة

معاوية تـارةً ، أو بعدها تـارةً أُخـرى ، أو بتوليته إياه بكتاب . وكلّ ذلك لا أصل له كما عرفنا.

وعلى المقالة الأُولى المزعومة بنى الفقهاء السُلطويون ، وأعرفهم ابن تيميّة الحرّاني ، القولَ بأن خلافة يزيد شرعيّة ، لأنّه عنده بويع "**بيعةً صحيحة**". وما زالت مقولته تتردّدُ حتى اليوم بين أتباعه المخدوعين .

وربما كان الأشـدُّ غرابةً وتحريكاً للعجب ، أنّنا لم نشهد أو نسمع باعتراضٍ من أحد من قادة الناس ، ومن زعماء القبائل ، وبنحوٍ خاصّ ، من حمَلَة الحديث ومَن إليهم من أرباب المناصب الدينيّة ، ــ ردّاً على تلك الفظائع المَهولَة. ما قد يُفهَم منه أن حجم الاجتياح البشري المُفاجئ الصّاعق ، الذي نزل بـ "دمشق" ، وما قد رافقه من مظاهر، قد أذهل الناس وأربكهم ، وتركهم حائرين لايهتدون سبيلا .

كلُّ ذلك يدلُّ على ثقل المُهمّات التي تنتظر المؤرخين الأحرار، الذين نصبوا أنفسهم لإعادة قراءة تاريخنا قراءةً متحرّرةً من الأوهام . فتعمل على تركيبه تركيباً من مادته الأصليّة . ولا يكتفون بنسخ ما يُناسبُ هواهم منها نسخاً عن مصادرها .

(٤)

يبدو أنّ أوّلَ عملٍ أولاه يزيد اهتمامه ، بعد أن اطمأنّ إلى أنه قد قبض على السُلطة في "دمشق" وتبعاً في "الشام" كلّه

، ما ذكرناه في خاتمة الفصل السابق ، أن حرّر رسالته الشهيرة إلى واليه على "المدينة" الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. وفيها يأمره بأن يأخذ له البيعة من أهلها. مع تخصيص الإمام الحسين (ع) وعبد الله بن الزبير بالذكر . تحت طائلة ضرْب عنق المُمتنع .

ونُضيفُ الآن ، أننا عرفنا أوّليّةَ ذلك العمل من مقارنةٍ تاريخيّةٍ بين ثابتيَن : وفاة معاوية في أول شهر رجب سنة ستين، ثم خروج الإمام الحسين (ع) من "المدينة" إلى "مكة" بتاريخ الثامن والعشرين منه . أي أنّ كلّ تلك الأحداث الفاصلة : دخول يزيد "دمشق" ، فتحرير الرسالة إلى الوليد ، ثم وصولها إلى " المدينة " ، فخروج الإمام الحسين (ع) منها بعد يومين ، ــ كلّ تلك الأحداث قد توالت أثناء مدّةٍ قياسيّة ، لاتتجاوز الثمانية وعشرين يوماً. وذلك إنجازٌ غير عاديّ ، لابدّ أنّه قد تمّ بواسط خيل البريد مثلاً . وقد ألمح المؤرخ اليعقوبي تلميحاً إلى مبادرة يزيد بذلك الأمر فور استلامه السُلطة ، بأن قال : "**وكان[يزيد] غائباً فلمّا قدم دمشق كتب إلى الوليد** . . . الخ." (تاريخ اليعقوبي : ١٦٨/٢) .

ولقد قُلنا آنفاً ، أن هذا الاهتمام البالغ من يزيد بأخذ البيعة له في "الحجاز" لَيدلُّ ، بما لا يقبل الريب ، على أنّ لابيعة سابقةً له في أعناق أهله كما زعم الزّاعمون . ونُضيفُ

الآن : إنّه يـدلُّ أيضاًعلى أن بيعة أهلـه ذات أهميّة خاصّة لديه . بدليل أنه لـم يطلب مثلها من أهل "العراق" وغيره من الأقطار. ولا غرو في ذلك لأسبابٍ غير خفيّة .

(٥)

ثم أنّ يزيداً أولى الاهتمام لمسألة الفريق المُحيط به ، ومهمّته إدارة مرافق الدولة الرئيسة . وذلك بأن :

ــ ثبّتَ سرجون بن منصور على رأس ديوان الخراج ، أي الإدارة الماليّة العامّة للدولة من جبايةٍ وصرْف . أي أنّ ما ذكرناه على خطّة معاوية مع الروم ، بتسديد عوائد "الشام" إلى خزينتهم ، قد أُقرّتْ في عهد يزيد فوراً ودون تعديل .

ـــ جعل على شُرطه ، أي المسؤول عن ضبط الأمن العامّ ، يزيد بن حميد بن حريث بن بحدل **الكلبي**. و"**على حرسه سعيد مولى كلب**" **(؟)** (تاريخ اليعقوبي: ١٧٦/٢) .

ـــ ولّى إمرة "الجزيرة" و "قنّسرين" إلى سعيد بن مالك بن بحدل **الكلبي** "**وإليه [ظلّ] يُنسبُ ديرُ ابنُ بحدل**" حتى أيام المسعودي في القرن ٤هـ / ١٠م (أنساب الاشراف: ٣٥٤/٥) .

ـــ "**وكان الغالبُ عليه [خاله] حسّان بن بحدل الكلبي**"(تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٧٦). وعبارة "**الغالبُ عليه**" تعني مايُشبه منصب الوزارة فيما بعد. حيث يتولّى ذلك "**الغالبُ**" كافة شؤون الحكم اليوميّة ،

ليكون للخليفة ، الذي عُرف بالخمر وضروب الشهوات ، الوقتَ الذي يشاء ويشتهي ، كيما يتمتّع بحياته الشخصيّة وبملاذّه .

هكذا تمّ ليزيد أن يُشكّل فوراً جهازاً لإدارة شؤون الدولة تحت إشرافه في "الشام" و"الجزيرة" ، ليس فيه مسلمٌ واحد . تاركاً أجهزة الإدارة في الأقطار الأُخرى على ماكانت عليه أيّامَ سلفه . الأمرُ الذي يتركنا نفهم منه أنّ ما كان يعملُ عليه مُتعلقٌ فقط بتلك المنطقة دون سواها .

تُتيحُ لنا هذه المجموعة المُتآزرة من النتائج الثابتة ، أن نبدأ تركيب تاريخٍ للخطّة الشاملة التي كان يزيد يعملُ عليها ، بمعونة العُملاء الداخليين الكُثُر للدولة الرّوميّة ، وبمعونة الأُخرى المُتربّصة بعسكرها الجاهز من القبائل العربيّة الأربع الكبرى ، التي التحقت أو بالأحرى أُلحقت بعسكر الرُّوم وهم يغادرون "الشام" مهزومين ، كما بيّنّا آنفاً. بانتظار التدخُّل حين اللزوم، ابتغاء الانقلاب على كلّ نتائج فتح المسلمين للمنطقة . الأمرُ الذي ، لو انّه تمّ للعاملين عليه ، فسيكون من المُمكن جداً ، بل ربما من المحتوم ، أن ينسحب على كلّ المنطقة الإفريقيّة المُمتدّة جنوب البحر المتوسّط / شمال "إفريقيا" . ومنها طبعاً "مصر" بل ربما وعلى" العراق " أيضاً . لِما هنالك من تناظُرٍ وتشابه في هُويّة أكثريّة سكان أهل هاتيك الأقطار الثقافيّة .

(٦)

الخطوة الثالثة التي عمل عليها يزيد ، بعد الاستيلاء بالقهر على السُلطة ، فتسليم كامل الجهاز الإداري في "الشام" و"الجزيرة" إلى الذين هم في دخيلتهم عُملاء داخليين للدولة الرّوميّة ، ــ أن افتتح ، من موقعه الرّسمي، خطّةَ الطّعن الصّريحَ على الإسلام عقيدةً وشريعةً من أوسع الأبواب.

ولسنا ، ولا القارئُ معنا ، بحاجةٍ إلى كثير تأمُّل ، كيما نرى المرمى النهائيّ له وراءَ تلك الخطّة المُتدرّجة بخطواتها الثلاث ، التى لانشكُّ في أنّها ليست من بنات أفكاره وحده . بل هي ثمرةُ تنسيقٍ بين (الخليفة) وبين أخواله بني كلب، الذين سيقتحم بهم "دمشق" ، وسيفرضُ منهم أكثرَ رجال إدارته الجديدة . وبقيادة رفيقه ومعلّمه منصور ، وربما أيضاً بعلمٍ وتنسيقٍ مع "القسطنطينيّة". والكُلُّ ابتغاء الغرض الذي تلتقي عنده مصلحة الأطراف الأربعة . وما هو إلا إعلان الرِّدّة عن الإسلام، على لسان أعلى سُلطةٍ فيه ، ومن موقع عاصمته الفعليّة ، بل وربما من مقرّه الرسمي . ومن ثَـمّ لن يكون من العسير استعادة المنطقة إلى أحضان الروم . وبذلك يكون هؤلاء قد استعادوا بالدهاء ما كانوا قد خسروه بالحرب .

سيكون علينا أن نُبيّنَ في الفقرة التالية كيف عمل يزيد على تلك الخطوة الثالثة من الخطّة .

(٧)

كان وصول يزيد إلى سُدّة الخلافة اللحظة التي جرى الإعدادُ لها ، خطوةً بعد خطوة ، ربما منذ أن جيء بميسون إلى فراش معاوية ، ثم استعادتها ما أن بان حملها . . . الخ. ممّا بات القارئُ على خُبرٍ منه .

ما يُكملُ هذه الخطوة ويمنحُها المعنى، أنّ وصوله كان أيضاً وُصولاً لخدينه ورفيق عمره منصور بن سرجون إلى موقع قسطه من العمل. بعد أن كان قد هجر مجالس اللهو والشراب. وانصرف إلى إعداد نفسه عقليّاً ومعرفةً ، بحيث غدا في مدّةٍ وجيزة فيما يبدو من كهنة الكنيسة اليونانيّة البارزين . ومشاركاً فاعلاً يؤخَذُ بقوله في النقاش العالق على عقائدها الرّسميّة ، في تلك الفترة التأسيسيّة الحَرجة من تاريخها .

إن أعمال منصور بن سرجون ، المعروف فيما بعد بالقديس يوحنا الدمشقي St.John Damascene ، ومن ضمنها نقده العلني للإسلام وقرآنه ونبيّه ، مبسوطةٌ بمُختلف اللغات في عشرات المُصنّفات شرقيّة وغربيّة. وأغلبُها يُشيد بأعماله في التأسيس الفكروي للمسيحيّة ، وبالمُقابل ضروب نشاطه في الطعن على الإسلام . وهو موقعٌ يستحقّه بجدارة ودون جدال . لكنّ غرضنا محصورٌ الآن في بيان مواصفات اللحظة التاريخيّة التي عمل فيها ، وتأثيرها البالغ على خطّه

الفكري الباقي في الكنيستين الشرقية الكاثوليكيّة والغربيّة الارثوذوكسيّة. وبالأخص أصداؤها المحلّيّة بين المسلمين، بحيث ساغ لنا أن نرصدها تحت عنوان الكتاب .

ثم أنه ، نظراً لكثرة المصادر وتنوّعها ، وصعوبة الإحاطة بها ، فإنّنا سنعتمد في هذا المطلب المقالةَ الضافيّةَ، التي حرّرها المؤرخ العراقي المُبدع الدكتور جواد علي (١٩٠٧ــ ١٩٨٧م) ، وهي منشورة في العدد الثاني من السنة الثالثة من مجلة (الرسالة) العراقيّة . وفيها وصفٌ شاملٌ لأعمال منصور، وخصوصاً في الطعن الشامل على الإسلام . بحيث أنّه كان يعقد الجلسات لغرضه هـذا في قصر يزيد ، ويحضرها عليّةُ القوم من المسلمين . ليكون هو المُتكلّم الوحيد دون مناقشة أو فرصة للرّدّ من أحد . أو بالأحرى أنّه لم يُذكر أنّ أحداً منهم قد ردّ عليه ببنت شفة . مع أن بعض ماكان يُدلي به أو يورده في مصنفاته هو من باب التخرُّص الصريح الذي يسهُلُ كشفُه على مَن له أدنى علم .

على أنّنا قبل تفصيل الكلام على وجوه كلام منصور في الطعن على الإسلام ، كما وردت في المقالة ، يحسُنُ بنا أن نُشير إلى أنّ الدكتور رحمه الله ساق مقالته بعد مقدمةٍ قال فيها : "**عجيبٌ أمرُ أولئك المسلمين كانت صدورهم رحبة . أرحبُ من صدور أهل القرن العشرين** " . وكأنّه فهمَ ممّا سيعرضه من أقوال

وأعمال منصور أنّها كانت تُعلَنُ في جوٍّ حواريٍّ مُنفتح . وأنّ سكوت المُستمعين عليها كان له معنى حريّة المُخالف في أن يعالن برأيه ، مهما يكُن مختلفاً عن رأي المُمسك بصولجان السُلطة . ويا لبُعد هذا الفهم عن الصواب . وما ذلك الفهم البعيد عن الحقيقة منه إلا لأن المؤرخ لم يكُن على خُبرٍ كافٍ بمواصفات الظرف السياسي الذي كانت تُعقدُ فيه تلك الجلسات وتُصنّفُ الكُتُب ، تحت حماية يزيد، بل في قصره وبحضوره. الأمرُ الذي يمنحُ أعمالَ منصور صفة الإرادة العُليا، التي يجبُ الامتثال لها من الكافة ، تحت طائلة غضب الجالس على سُدّة الخلافة .

على أنني أرجو القارئ أن لا يفهم من كلامي هذا ، أنّني أجِدُ به العذرَ لأهل "دمشق" عن السكوت على ذلك العمل البالغ الوقاحة ، الذي كان يجري بين ظهرانيّهم . بمَن فيهم من رجال دولة وذوي مناصب دينيّة. دون أن يلقى أدنى اعتراضٍ منهم . بل كلّ ما رميتُ إليه أن أُخرج الموقف من دائرة رحابة صدرٍ وضيقه ، ومن دائرة النقاش الحرّ، كما فهمها الدكتور جواد ، إلى دائرة استخدام السُلطة في القمع الفكري لأغراضٍ سياسيّة . مع تسجيل علامة تعجُّب كبيرة أمام خذلان المدينة العاصمة لهُويّتها .

بعد هذا التعريج ، الذي لم يكُن منه بُدّ ، نُتابع :

بالإضافة إلى ما قد بسطناه في الفصل الثالث من وجوه أعمال منصور في الطعن المُتمادي بالإسلام ، وفي رأسها إنكار النُبوّة والتنزيل علناً، حيث وعدنا هناك بمُتابعة الموضوع في الآتي ، ــ نقول الآن إنّه ، حسب الدكتور جواد علي، من بين أعمالٍ أُخرى ، وضع لأبناء دينه كتاباً مبسوطاً في المُناظرة مع المسلمين بطريقة السؤال والجواب، نسَقَه على: "**إذا سألك المسلم كذا فأجبه بكذا**" ، "**إذا قال لك المُسلم كذا فقُل له كذا، ولا تقُل له كذا**" . مع التّشديد على ضرورة التّقيُّد الحرفيّ الدقيق بالسؤال والجواب .

من أمثلته :

" **إذا سألك العربيُّ ما تقول في المسيح ؟ فقُل له إنـه كلمةُ الله . ثم فليسأله : "بما سُمّي المسيحُ في القرآن ؟ "ولا يتكلّم بشيء حتى يُجيبه المسلم . فإنّه سيضطرُ إلى أن يقول : " إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه" . فإذا هو أجابه بذلك فليسأله : " هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة؟" فإن قال "مخلوقة" . فليردّ عليه بأنّ الله إذن كان قبل المسيح ولم تكُن له كلمةٌ ولا روح " . فإن قُلتَ ذلك فسيُفحم العربي . لأن مَن يقول ذلك هو عندهم زنديق**" .

وفيما يخصُّ اعتراض المسلمين على عبادة الصليب وتقديسه علّمَه أن يقول : "**أنتم تُنكرون علينا تقديس الصليب ، وهو**

من خشب، بينما أنتم تُقدّسون حجراً أسوداً ، ماهو إلا رأس (أفروديت)".
ثم يُتابع: "**تدّعون أنكم إنّما تُقدّسون هذا الحجر الأسود لأنّ إبراهيم في زعمكم قد اضطجع عليه . أو لأنه قد ربط به ناقته حينما همّ بذبح ولده إسحق. وتسخرون منّا لأننا نُقدّسُ الصليب الذي صُلب عليه سيدُنا عيسى المسيح**" .

كما تناول قضيّة حريّة الإرادة . فزعم أنّ العالَم من فريقين اثنين . فريقٌ دان بحرية الإرادة هو فريقُ المسيحيين . وآخر بعقيدة أنّ (القدرَ خيره وشرّه من الله) هم المسلمون قاطبة . ثم يُعقّبُ على زعمه هذا بالقول : " **هل يُمكن أن يكون الله هو العلّة والسبب والفاعل لكلِّ شيء حتى المكروه ؟ . يقول المسيحيّون لا، لأنّ الله لا يمكن أن يكون خالقاً للقبيح أو الشّرّ. لأنه سيكون حينئذٍ ظالماً . ومن المُحال نسبةُ الظلم إليه**" .

والأمثال في الكتاب كثيرة جدّاً. وهي موجودةٌ بين بعض الأيدي حتى اليوم، على ما قيل لي . وماهو في الحقيقة إلا مجموعةٌ من الإسقاطات والتخرّصات واللعب على الألفاظ . ليس معنى أن المسيح (ع) في القرآن روح الله ، أنه تعالى شيءٌ له روح هي المسيح . والحجر الأسودُ ليس مُقدّساً عند المسلمين لأي سبب . بل هو على الأرجح الجزء الباقي من مادّة بناء إبراهيم (ع) للكعبة ، فقيمته صِرْف تذكاريّة . وليس المسلمون من القائلين بالجبر، بالنحو الذي بسط منصور الكلام

عليه . بل إن تلك الصيغة هي ممّا نشره معاوية ، فكرةً رئيسةً في مشروعه العامل على قمع الناس قمعاً ذاتيّاً ، لأسبابٍ سياسيّة غير خفيّة . وبقيت من بعده العقيدة الرسمية للدولة.

هذا وإنّني لأظنُّ ظنّاً قويّاً ، أن المكانة العالية التي اكتسبها القديس يوحنّا بين أبناء الكنيستيَن ، قد تأثّرت بنحوٍ عميقٍ بالعمل الجدلي المُتنوّع الذي نظّمه وقاده ضد الإسلام . وهو على كلّ حال آخرُ مَن وضع الصيغة النهائيّة للعقيدة المسيحيّة الجامعة لدى الكنيستيَن : الخطيئة الأصليّة ، سرّ التجسُّد الرّباني بشخص المسيح فداءً للخطيئة الأصليّة ، انحصارُ الخلاص به . تلك الصيغة التي حلّت محلّ عقيدة المسيحيين الأوائل / النّصارى ، الذين باتوا عنده هراطقة .

والبحثُ من ثَمّ واسعٌ عميقٌ، برسم أهل الاختصاص . لكنّني أرى أنّ من الإمارات الأساسيّة في عمل يوحنا أنّه هو الذي ثبّت تقديس الإيقونات في الطقوس الدينيّة ، في مقابل الذين سمّاهم بالهراطقة ، في أحد أشهر كُتُبه وأبعدها أثراً *De Haeresbius* =(*الهراطقة*). وما أكثرُ أُولئك في الحقيقة إلا الذين ثبتوا على النصرانيّة الأصليّة . بوصفها جزءاً ومرحلةً من حركة النبوات المتتالية .

(للتوسُّع اقرأ بحثاً واسعاً عليه وعلى أعماله في كتاب *تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين* : ٢/ ١١٦ لفيليب حتي) .

(٨)

إن نحن اتخذنا من الامثال ، التي بسطنا بعضها آنفاً في الفصل الثالث ، ثم تابعناها فيما اقتبسناه أعلاه من كتابه الجدليّ التعليميّ ذاك ، ــ اتخذناها أُنموذجاً عن الفكر والمشروع الذي اضطلع به منصور بن سرجون في "دمشق"، بالرعاية الكاملة من الجالس على سُدّة الخلافة ، فإنّ ذلك يُزوّدنا لأوّل مرّة ، في حركة البحث التاريخي في الإسلام ، بصورةٍ على مقدارٍ كافٍ من الوضوح لِما كان يجري تدبيره والتهيئة له في الخفاء ، باتجاه الانقلاب على كامل حركة الانتشار الإسلامي في المنطقة الحضاريّة الشاسعة غرب "البحر المتوسط" . ثم يمكن أن تتدحرج نتائجه بسهولة إلى المنطقة الحضاريّة المُجاورة جنوب البحر، ومنها طبعاً "مصر"، كما سبق منّا القول آنفاً .

ذلك التدبير الذي بدأت نتائجه تظهر تِباعاً بالاستيلاء بالقهر على السُلطة ، لمصلحة شخصٍ جرى إعداده ذهنيّاً وأخلاقيّاً. كيما يكون الذي يتولّى من موقعه التغطية السياسيّة للمشروع في مراحله الأخيرة . قبل القفز إلى الخطوة الأخيرة ، التي لن تكون بالتأكيد غير إعلان الرّدّة عن الإسلام، بوصفه دين المجتمع والدولة. وإعادة المنطقة الشاميّة بأسرها قُطراً من أقطار الامبراطوريّة الروميّة .

من هنا نقول ، إنّ تلك الجلسات التي كانت تُعقد في قصر يزيد وبحضوره ، ويترأسها منصور بن سرجون مُتحدّثاً فرداً. فيتناول الإسلامَ عقيدةً وشريعةً بالطعن والتجريح العلني . من صحّة نُبوّة نبيّه وصدق ما أُنزل عليه. إلى أخلاقه وسلوكه في القتال والنساء خصوصاً . ممّا لايمنعُنا من ترديده إلا أنّه بمثابة إشاعةٍ للفحشاء . حتى وإن يكُن مجموعةً من التخرُّصات السخيفة . التي إن دلّتْ على شيء ، فعلى جهل قائلها وسوء مقاصده . وسط سكوت الحاضرين من بطانة يزيد وأهل الحلّ والعقد من رجال دولته ، ــ كلُّ ذلك لم يكُن إلا بمثابة تهيئةِ وتحضيرِ الاذهان والنفوس لتلك الخطوة الأخيرة ، التي يُرادُ منها أن تُعيد مجّاناً ، وبحركةٍ سياسيّة واحدة ، عقارب الساعة في " الشام " إلى الوراء .

والذي يؤخذُ من مجرى الأحداث في الزمان بـ "دمشق" ، أنّ هذا العمل التحضيري المُباشر قد استمرّ زهاء ستة أشهر أو أكثر قليلا . أي ابتداءً من تاريخ استيلاء يزيد على السُلطة بُعيد وفاة معاوية في شهر رجب سنة ٦٠ هجريّة . إلى أن بدأ العملُ يترنّح ثم ينقطع بعد شهر المحرم سنة ٦١ . تحت وطأة الوضع البالغ الاضطراب ، الذي استولدته في "دمشق"خطيئةُ واقعة "كربلا. ماسيكون وصفه موضع عنايتنا .

(٩)

في ختام هذا الفصل ، يجبُ علينا لمصلحة القارئ بالدرجة الأُولى ، ومُواكبته لحلقات البحث ، أن نُضيف إلى فهمنا لعناصر الخطّة الانقلابيّة أمران ، ذكرناهما آنفاً ، ويحسُن بنا الآن التذكير بهما ، كيما يأخذهما القارئ بعين الاعتبار :

ــ الأول : القاعدة السُكّانيّة الواسعة من السكان المُتنصّرين الأُصلاء في المنطقة الشاميّة ، الذين كانوا يتلهّفون لعودة الروم إلى حُكم بلدهم . وهم سيؤيّدون بالتأكيد أي عملٍ سياسي أو ثقافي مُعارض للإسلام . بل وربما كان يجري في الخفاء تجهيزهم لذلك .

ــ الثاني: أبناء القبائل العربية الأربعة التي عرفنا أنها تبعت خُطى الروم وهم يُغادرون "الشام" بعد هزائمهم . وهي التي عرفنا أيضاً ، فيما فات من البحث ، أنّها كانت مُتحفّزة ، تنتظر اللحظة المناسبة للانطلاق إلى استعادة أوطانها الفقيدة بالقوة .

نقولُ ذلك ، وإن تكُن إضافةُ اللحاظيَن إلى العناصر الانقلابيّة المُجهّزة ضرْباً من التصوّر لِما لم يقع بالفعل . لكنه مع ذلك تصوّرٌ مشروعٌ من المؤرخ . وإلا سيكون علينا أن نفترض أنّ "القسطنطينيّة" ، وهي المُستفيدُ الأوّل من العمليّة ، كانت بكل رصيدها العريق من الخبرة العسكريّة والسياسيّة ،

تقفُ مكتوفة اليدين ، بانتظار أن تسقط الثمرة اليانعة في أحضانها ، دون أن تُكلّفَ نفسها أدنى جُهد. وإن يكن من باب الجُهد الرديف الاحتياطي ، الذي لا يتدخّل إلا عند ظهور نقصٍ في الخطّة أو الحسابات .

هكذا كانت الساحة في المنطقة الشاميّة مُهيأةً لحَدَثٍ جلل . ولم يبقَ إلا ، ربما، المزيد من تحضير النفوس والأذهان بأعمال منصور لتقبُّل الجمهور إعلان الرِّدّة . إلا أن يأتي من الغيب حدثٌ يكسرُ الصّمت ، ويقلبُ الطاولة بكلّ ما دُبّرَ . وكانت " كربلا " هي ذلك المستور .

———

الفصل الثامن

بين السَّلَّة والذِّلَّــة

(١)

الذي يتردّدُ في الكُتُب ، أنّ ما آلَ إلى يوم " كربلا " ، قد بدأ مسارَه المشؤم في ذلك اللقاء العاصف بين الإمام الحسين(ع) ووالي "المدينة" الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان . حيث أبلغه هذا أمرَ يزيد بأن يأخذَ له البيعة من الإمام ، تحت طائلة قتله إن أبى . ومنه تدحرجت الأُمور أثناء الستة الأشهر التالية ، إلى أن وصلت إلى أهوال اليوم العاشر من المُحرّم ٦١هـ/٢٠ أيلول/ سبتمبر ٦٨٠ م . ومنه بدأ مسارٌ جديدٌ للأحداث ، ما زالُ يتفاعل ويُنتج حتى اليوم .

الواقعة صحيحةٌ دون ريب . لكنّها لا تعني بالضرورة أنّه لولاها لَما انفجرَ النّزاع ، ولتابعَ السلامُ الباردُ مع معاوية مجراه الذي سلكه طيلة العقدين الماضيين .

ذلك لأننا نعرف أن الإمام كان، حين يُطالبه شيعته بالنهوض، يُلبّثهم ويأمرهم بالقعود مادام معاويةُ على قيد الحياة. الأمر الذي يدلُّ على أنّه لم يكُن يجِدُ سبباً مُلزماً ، يحصرُ حلَّ مسألة السُلطة بالنزاع العلني ، وما قد يترتّبُ عليه من خسائر

باهظة. فضلاً عن الشّكّ في جدوى النزاع ، لِما هنالك من عوامل سياسيّة موروثة ، مازالت فاعلةً مؤثّرةً داخل الجسم البشريّ الإسلامي . لذلك فالمُتعيّن في هذه الحال تركُ المسألة للتفاعل والصراع السّلمي الداخلي . مع تجنّب القفز مُباشرةً إلى الصيغة المنشودة . وهذه هي سُنّة الحياة فينا وفي الذين من قبلنا . وعلى ذلك مضت سيرةُ الإماميَن السابقيَن .

بيدَ أنّ الأمرَ سيختلفُ تماماً حين يتجاوزُ قضيّة وظيفةَ السُلطةِ في بسط القسط ، التي يُمكن إيكالُ تصحيح الخلل فيها إلى الحِراك الداخلي ، والنضال السياسي والفكري الصّبور، باتجاه ترميم مواطن الخلل العارضة ، ــ ليصِلَ إلى درجة مشروعٍ انقلابيٍّ ارتداديٍّ ، كذلك الذي بسطنا الكلام على وجوهه في الصفحات السابقة . إذ ذاك تسقطُ كلُّ التّحفُّظات . وتغدو الأولويّة للبذل غير المحدود دون بديل ، مهما تكُن التضحيات جسيمةً باهظة .

هو ذا الإطار الذي يتوسّطه ، بل يجِب عند العارف أن يتوسّطه ، يومُ "كربلا" . وبذلك وحده يغدو من الممكن أن نتفهّمَ المُعطيات المُتعارضة ، التي تطرحها على المُتأمّل المُدقّق أعمالُ وأقوالُ الإمام الحسين (ع) ، وهو يشقُّ طريقَه الصّعب باتجاه الشهادة المحتومَة . من مثل التّحضير الدقيق لدخوله "الكوفة"، وفي عين الوقت إعلانه أنّ سيرَه محتوم إلى الشهادة .

(٢)

هل نفهم من هذا التحليل، أنّنا نبني فهمنا هذا على قاعدة أنّ الإمام كان على خُبرٍ بوجوه ذلك العمل التحضيري الحثيث ، الذي كان عالقاً في"دمشق". وأنّ علمه به كان السببَ المُباشرَ لإعلان الخروج على السُلطة . . . الخ ؟

نقول في الجواب: ليس بالضرورة ! لا لأن العملَ في "دمشق" كان مُحاطاً بسياجٍ من السّرّيّة . بل نقول إنّه ، بوصفه عملاً دعويّاً إعلاميّاً ، كما نقول اليوم ، كانت فائدته وتأثيره لمَن يرتكبونه مرهونيَن بانتشار مادته على أوسع نطاقٍ مُمكن . وفي هذا السبيل كان يزيد ومنصور يعقدان تلك الجلسات الحاشدة في القصر . ومن هنا نقول إنّ من المُستبعَد جداً أن لاتصِلَ أصداءُ ذلك إلى "الحجاز" و"العراق" .

لكن ، لأننا لانجِدُ في كلمات وخُطب الإمام الكثيرة ، قبل وأثناء يوم "كربلا"، مايدلُّ على ذلك صراحةً . مع تسجيل احتمال أن يكون لعدم الذكر أسبابه الخاصّة . على الأقلّ لأنه سيكون ضمناً من باب المعونة على نشر المُنكَر. ولعلّ في "الحجاز"و"العراق" ، من بقايا الأُمم السابقة ، بل ومن بعض القبائل العربيّة ، مَن يبعثُ فيهم ذكرُ ذلك لوناً من الغبطة والرضى ، بل وقد يُحرّك ما هو ساكنٌ في بعض النفوس .

بالإضافة إلى هذه الاعتبارات نقول ، إنّ معالجة هذه الإشكاليّة الصغيرة ليست بذات أهميّة بنفسها . بل الأهميّة كلّ الأهميّة هي في أنّ واقعة يوم "كربلا" ، سواءٌ كان مُنطلقُها من علم الإمام بما كان يُدبّر أم بغيره ، فإنّها قد قضتْ بالفعل وبالمعمول على كامل المشروع الانقلابي قضاءً مُبرماً ، كما سنُبيّنه في الآتي على التّوّ . كما قضت على أبطاله بنحوٍ أو بآخَر. وأودعته وأودعتهم المكان والموقع الذي يستحقّونه .

وسيكون علينا ، فيما بقي من البحث ، أن نقِفَ على التفاعلات التي أطلقتها "كربلا" ، كيما نرى كيف تـمّ لها ذلك الانجاز التاريخي الكبير .

(٣)

سنبدأُ مُلاحقةَ الأحداث بالوقوف على روايةٍ غريبة ، ينتشرُ ذكرُها في الكُتُب قديمها وحديثها . وإنما نبدأُ بها لِما فيها من مغزىً عميق . عُمدتُها رواية (الطبري : ٥ / ٣٤٨ و ٣٥٦) . وهذه الأخيرة تصعدُ إلى راويها الأوّل المَدعو"عُوانة بن الحكم الكلبي". وهي منقولةٌ أيضاً بيسير اختلاف عاريةً عن السند في (ابن الأثير: الكامل:٤/ ٢٢ ، وابن مسكويه : تجارب الأُمم : ٦ / ٧٠) . وللمزيد من مصادر الرواية انظر(محمد الريشهري : *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٣٤١ ـ٤٣) .

تقول روايةُ الكلبي . وهي أعلاها سنداً :

" دعا يزيدُ سرجونَ مولى معاوية فقال :" ما رأيُك ، فإنّ حسيناً قد توجّه نحو الكوفة ، ومسلمُ بن عقيل يُبايعُ للحسين . فما ترى مَن أستعملُ على الكوفة ؟ " . فقال سرجون : أرأيتَ معاويةَ لو نُشِر لك أكنتَ آخذاً برأيه ؟ فقال: نعم ! فأخرج عهدَ عُبيد الله على الكوفة وقال : هذا رأي معاوية . ومات وقد أمر بهذا الكتاب " .

وتُضيفُ روايةُ الطبري الأُولى : " **فولاّه وكتب إليه أن يطلب مسلم بن عقيل ويقتله** " .

الرواية كما وردت صحيحةٌ عندنا. خصوصاً وأنّها ممّا سجّله الرّاوية الفذّ أبومخنف ، عن لسان مَن يبدو أنّه كان شاهد عيان ، أثناء سعي أبو مُخنف القيّم إلى تسجيل أحداث "كربلا" وما يتعلّق بها ، من أفواه الرجال الذين ضربوا فيها بسهم ، أو عمّن سمعوا من أحدهم ممّن شهدوها .

لكنّ ذلك لا يعني أنّنا نتقبّل ما فيها من فذلكةٍ واهية ، تُظهرُ معاويةَ شخصاً يتمتّعُ برؤيةٍ مُستقبليّةٍ عجيبةٍ . تمنحه القُدرةَ على أن يرى سلفاً ماسيكون بعد زمانٍ طويل . بل وأنْ يتخذَ قِبالَه التدبيرَ الصحيح ، يُثبّته بأمرٍ مكتوب يُذيّله بتوقيعه / علامته . ثم يأتمنُ عليه سرجون دون غيره . ليأتي يزيد بعد شهورٍ على الأقلّ ، ليطرح طلب الرأي على سرجون ، فيجده جاهزاً لديه .

هذه قصّة لاتخفى فيها إماراتُ الصّنعَة .

المغزى الوحيد عندنا لهذه الرواية إجمالاً ، أنّها تبيّنُ لنا إحدى الوسائل التي كان يتلعّبُ بها الدّاهيةُ سرجون بعقل يزيدٍ الغَرّ . كما سيتلعّبُ به ابنُهُ منصور فيما بسطناه أعلاه . كما أنها تدلُّ، على نحو الترجيح ، على أن تاريخ تنميق الرواية يرقى إلى مابعد واقعة "كربلا" بقليل ، قبل أن تنفجر الجريمةُ في وجه مُرتكبيها. حيث بات المطلوب أن تُنسى وتُقتلَع من ذاكرة الناس في "دمشق". ولم يبقَ من محلٍ لأحدٍ ليتفاخر بدورٍ فيها ، مهما يكُن صغيرا .

هذا، وإنّ شُهودَ الزّاوي الأوّل للرواية ، عوانة بن الحكم **الكلبي** ، للواقعة ، وهو الذي تُظهر نسبته أنّه من بني كلب أخوال يزيد ، لتدلّنا ضمناً على ما كان لهذا الرجل المجهول من موقعٍ في البطانة القريبة من يزيد . بحيث يحضر مثل تلك المُباحثة الخطيرة في شؤون الدولة . الأمرُ الذي يدلُّ ضمناً على تغلغُل أسماءٍ وأعدادٍ مجهولةٍ من أبناء تلك القبيلة بمراكز القرار في الدولة .

يؤيّدُ هذه النتيجة ما قد لاحظناه من مراجعة فهرست الأعلام في تاريخ الطبري ، تحت عنوان اسم الرّاوي " عوانة " ذاك ، ومن ثَـمّ تطبيقها على مواردها في متن الكتاب. حيث لاحظنا أنّ رواياته إجمالاً تُظهره حاضراً أو مُشاركاً في الجلسات التي تُتخذُ فيها القراراتُ الكُبرى في "دمشق" .

(٤)

بعد ذلك التّعريج ، الذي لم يكُن منه بُـدّ ، سنعود إلى عمـود البحث ، ساعين إلى وصفَ التفاعلات التي أطلقها يومُ "كربلا" . وهي عُمدةُ البحث . فنقول :

إنّ مَن يقرأ تاريخ الفترة ابتداءً من السنة ٦١هـ ، مع مُقارنتها بالسنوات العشرين التي سبقتها ، ليرَ أنّ حالة السكون التي سيطرت طيلة تلك السنوات ، مانحةً السُلطة في "دمشق" حريّة الحركة دون أدنى اعتراضٍ من أحد ، مع أنّها مسّتْ أُموراً لم يكُن يخطر في بال أحدٍ أن تُمسّ ، ــ هذه الحالة قد انتهت إلى غير رجعة . وحلّت محلّها يقظةٌ غير مسبوقة . تتابعت كلُّها على قاعدة ماجرى بساحة "كربلا" يوم ١٠ محرم من السنة المذكورة . وإن هي اختلفت في دوافعها ومقاصدها .

أوّلُها حُدوثاً حركةُ التّوّابين . قادها في "الكوفة" جَمْعٌ من بضع أُلوفٍ من المُعرقين في التّشيُّع من أهلها . ندماً على مافرّطوا في حقّ إمامهم ، حيث خذلوه بعد أن دعوه ومنّوه بالنّصر. فلمّا وقعت الواقعة اجتهدوا الرأي بأنّهم بات عليهم أن يتوبوا ، بقتل أنفسهم في قتالٍ يائسٍ. وهكذا كان .

من الواضح أنّ حركة التّوّابين كانت حركةً سادها الانفعال ، لم تكُن بذات جدوى بأيّ معنى ولا من أمل . كما أنّها تفتقرُ بشدّة إلى المفهوميّة الشّرعيّة. الأمرُ الذي نقرأه

بوضوح في أن رجالها نعتوا أنفسهم بـ "التّوّابين" ، دون أن يتقيّدوا بمفهوم القرآن للتوبة ، الذي ليس منه قتلُ النفس . ونحن إنّما ذكرناها ، بوصفها إحدى التفاعلات التي أطلقتها "كربلا" ، فقط لأنّها تدلُّ على الغور العميق الذي سكنه الحدث الكربلائي في نفوس الذين ابتلوا بـه ، بمعنىً أو بغيره ، وبدرجةٍ أو بغيرها ، بحيثُ دفع مجموعة ممّن لاريب في إخلاصهم إلى ذلك العمل اليائس ، المُفتقر إلى الرؤية الصادقة .

ثانيها الحركةُ التي قادها المختار الثقفي ، تحت شعار إنزال العقاب والانتقام من كل الذي شركوا بدماء الشهداء . ونجحت على مستوى الشعار وعلى مستوى المطلب . وسط عجز الدولة عن التّصدّي لها. على الرغم من الحشد الكبير من قُواها المحلّيّة ابتغاء القضاء على الحركة . أوّلاً بسبب العديد الكبير من الذين استجابوا للشعار، واستبسالهم في الدفاع عنه . وثانياً لانشغال الدولة بالدفاع عن نفسها، قِبال الانتقاضات المتواليّة التي طفقت تنفجر في وجهها بالتوالي.إن لم يكُ بتأثيرٍ مباشرٍ لجريمتها، فلأنّ الجريمة قد اسقطت القناعَ عن وجهها البشع ، فبان على حقيقته.ومن ذلك أنّها سقطت معنويّاً حتى في حاضرة مُلكها . ممّا سنقفُ عليه في الآتي إن شاء الله .

ثالثها ثورة "المدينة" المهولة. المعروفة في الكُتُب بـ "يوم الحَرّة". التي إن لم تكُن قد انفجرت بتأثيرٍ مباشرٍ ليوم

"كربلا" ، فإنّ من المؤكّد الذي لامِراء فيه أنّها ماكان من الممكن أن تحصلَ لولاه ، ولولا تأثيره المُتمادي في "الحجاز" و "العراق" و "الشام" .

كان ردُّ الدولة على ثورة "المدينة" في الغاية من العُنف والقسوة. بحيث فاقت بكثير ماهو ضروري، حتى من وجهة نظر أمنيّة عسكريّة لِما فيه مصلحة الدولة ، وباعتبارات حماية نفسها ورعاية مصالحها.

ذلك بأنها اقتحمت بعسكرها مدينة رسول (ص) ، وأباحتها لهم ثلاثة أيّام . ارتكبوا أثناءها من الفظائع ، ما لم ينزل مثله بأي مدينةٍ إسـلاميّة بأيـدٍ إسلاميّة. ما يدلُّ على حالة الرُّعب والإحباط اللتين كانت تُعاني منها. بحيث أنها لم تُعُد تُبالي ما تفعل وكيف تفعل ، في سبيل ردّ الآتي المحتوم ، في ظلّ الانتقاضات المُتوالية عليها.

المصادرُ إجمالاً تقول ، أنّ كلَّ ذلك قد تمّ بأوامر مباشرة من يزيد لقائد عسكره . وهذا واضحٌ لالَبْسَ ولاريبَ فيه ، كما أنّه مُنسجمٌ مع طبيعة الأُمور، من حيث أنّ يزيد وحده كان الذي يملكُ قرارَ الحرب والسّلم.

ومع ذلك ، فإنّ هذه الاعتبارات لا تُنهي قضيّة المسؤول عن الجريمة . بل نراها تطرحُ على المُتأمل الخبير سؤالاً كبيراً :

السؤال هو :

ما كان دور سرجون وابنه منصور في تلك الجريمة المهولة ، بما لها من بُعدٍ عمليّ ، بالقتل الذّريع دون تمييز ، وبانتهاك الاعراض ، وبنهب المُمتلكات . وأيضاً بما لها من بُعدٍ معنوي ، ناشيءٍ ممّا كان لـ "المدينة" من رمزيّة ، كِفاءَ دورها التاريخي الباهر في نشأة الإسلام ، ومن أنّها تضمُّ المرقدَ الشريف لنبيّه ؟

طبعاً نحن لا نطمعُ بجوابٍ صريحٍ على السؤال ، لِما له من طبيعةٍ تضعهُ ضمن أسرار الدولة المكتومَة . التي يجـري التذاكرُ بشأنها بين مجموعـةٍ ضيّقةٍ من خواصّ رجالها، المُشاركين بالقرارات الكُبرى، وخلف الأبواب المُغلقَة .

بيدَ أنّنا لايسعُنا أن نتجاهل أنّ سرجون كان يُستشارُ ويقضي ويؤخذُ بقوله في كلّ كبيرٍ من قرارات وشؤون الدولة . وقد رأينا قبل قليل أُنموذجاً صريحاً لذلك . كما أنّ ابنه منصور/ القديس يوحنا الدمشقي ، لم يكُن يُخفي كيـده للنبي (ص) بكلّ وسيلة . وقد وقفنا آنفاً على بعض أعماله في هذا النطاق .

فكيف تُفوّت الدولةُ استشارتَه في هذا الأمر الجلل؟ ثم كيف يُفوّت منصور فرصةَ النّيْل المعنوي والمادّي من رمزيّة "المدينة" ، بذلك الحجم الهائل والمعنى المُدوّي ، على أيدي مسلمين ؟!

أمّا رابعُ تلك التداعيات المُتعاقبة ، الآخذ بعضها برقاب بعض، فهو ثورةُ عبد الله بن الزبير انطلاقاً من "الحجاز". ووصلت إلى بسْط سلطانه الفعلي لفترةٍ على رقعةٍ واسعةٍ من دار الإسلام ، ضمّت "الحجاز" و "العراق" والقسم الأكبر من "الشام" ، بما فيه " دمشق " العاصمة . وتسمّيه باسم بالخلافة عليها . وحوصر بقايا الأُمويين في رقعةٍ صغيرةٍ قصيّةٍ من أرض "الشام" الشاسعة . إلى أن نهض عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ) فقضى عليها ، في الظرف والمُلابسات التي سنقفُ عليها في الآتي إن شاء الله .

أمّا الآن فسنكتفي من ذكرها بالقول ، إنّها كانت عملاً انتهازيّاً ، لاسندَ معنويّاً لها ، ممّا لصاحبها من موقعٍ وشأنٍ وأُطروحة سياسيّة . ومن هنا نقول، إنها استفادت مؤقتاً ، مؤقّتاً فقط ، من الانهيار الكبير الذي حاق بالدولة الأُمويّة ، بعد وبسبب جريمتها في"كربلا". ثم مالبثت أن انتهت ، غير مأسوفٍ عليها من أحد ، فكأنّها لم تكُن .

(٥)

مع تقديرنا للأهميّة الدّلاليّة البالغة لِما عرضناه من تداعيات يوم "كربلا" في "العراق" و"الحجاز، فإننا نرى أنّ أهمّ التداعيات ، وأبقاها وأبعدُها أثراً ، هي ماعلق في "الشام" . ومنه سَرَى تأثيرُها إلى غيره من الأقطار كافّة .

لذلك فإننا سنخصُّها بما بقي من البحث. مُتسلّحين بما نعرفه عمّا كان في المنطقة ، من حوافز وتهيّؤات كامنة .

لعلّ أهمّ تلك الحوافز والتهيؤات ما قد حملته الحركاتُ السُكّانيّة القادمة من "العراق" باتجاه "الشام، حاملةً معها توجّهاتٍ شيعيّة، عبّرت عن مكنون هُويتها بعد "كربلا" بمُختلف الأشكال، أودعته ونقرأه اليوم في الشعر. كما نرصده في مختلف أشكال الحِراك السياسي .

ولقد كُنّا ، من ضمن سعينا لتأسيس تاريخٍ حقيقيّ للشيعة في المنطقة الشّامية ، قد وقفنا في كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية* على وجوه الهجرات الشيعيّة إلى أقطار "الشام"، وفي رأسها الهجرة الهمدانيّة الكُبرى من "الكوفة" ، أوائلَ العقد السادس للهجرة . التي يعود إليها أكبرُ الفضل بتأصيله فيها . مايهمّنا الآن مانزل منها نطاق " دمشق" . نقتبسُ منه موضعَ الحاجة وبقدرها . تاركين للقارئ الطُّلعة أن يرجع إلى تفصيلها في الكتاب .

والذي يؤخذُ من مُجمل مانعرفه عن الهجرة الهمْدانيّة إلى "دمشق"، أنّ المهاجرين مصّروا في غوطتها ثلاثَ قُرى ، منحوها جميعها أسماءَ يمانيّة . هي "صنعا" التي بادت بعد حين وهضمَها توسُّع المدينة المُطّرِد ، و"حُجيراء"، "حِجّيرة" اليوم ،

و"عين ثرما" الباقيتيَن . الأمرُ الذي يدلُّ على أنّه ، بتاريخ وقعة " كربلا " بعد عشر سنوات تقريباً، كان في نطاق "دمشق" ثقلٌ سُكّانيٌّ شيعيٌّ وازنٌ . ذو تجربةٍ سياسيّةٍ عميقةٍ ، اكتسبها قبل هجرته من أيّامه مع الإمام علي (ع) في"الكوفة". كما ينتمي إلى الخلفيّةٍ الحضاريةٍ المدينيّةٍ لموطنه الأصليّ في "اليمن"، المُتقدّمة كثيراً بالقياس إلى أبناء شمال "شبه الجزيرة العربيّة" .

شعبٌ كهذا ، في عديده الكبير، وفي تجربته السياسيّة المُتقدّمة ، وفي خلفيّته الحضاريّة المدينيّة الفذّة ، يحلو لنا ، بل لابُدّ لنا ، من أن نتصوّرَ أنّه كان يُراقبُ ماكان يجري من حوله بعينٍ يقِظة . وأن يتفهّمَ ، ربما أفضلَ منّا اليوم ، أبعادَ مايجري في القصور الأُمويّة ، وفي قصر يزيد منها بخاصّة . ومن المؤكّد أنّه شهد بأُمّ العين وصولَ موكب سبايا "كربلا" الحزين ، الذين كان يعرفُ مَن هم جيّداً . خلافاً لجموع المخدوعين ، الذين استقبلوا الموكب بالزينات ومظاهر الفرح .

أولئك الهمْدانيّون، الذين تتبّعنا رجالاتهم في " دمشق " ذكـراً في كتابنا المذكور أعلاه/٢٤٦ـ٤٨ هم الذين أطلقوا الصّرخةَ التي قلبت فرحَ يزيد وبطانته وجمهوره بالنّصر الموهوم في "كربلا" ، إلى حالةٍ لاتُوصَف من الندم والرُعب ممّا جنته أيديهم . وسنقِفُ عليه توّاً . وليسوا بالتأكيد القطيع الذي روّضه ودجّنه معاوية بدهاءٍ مابعده دهاء ، بحيث بات منيعاً تجاه أيّ

فكرٍ يُنتجُ حالة مُمانعة أو اعتراض أو نقد للسُلطة الفعليّة ، أيّاً كانت وأيّا تكُن أعمالُها. وذلك بأن نشرَ مفاهيم من قبيل أنّ كلّ مايحصل فإنّما بقضاءٍ من الله وقدر.إذن، فالاعتراض عليه هو اعتراضٌ على إرادته تعالى. وأنّ كلّ خروجٍ على الحاكم الفعلي هو شقٌّ لعصا الإسلام والمسلمين . وأن على المظلوم أن يصبرَ على الظالم ، لأن الله تعالى سيأخذُ بناصره يوم القيامة "**إصبر حتى تلقاني**" . إلى ماهنالك من أدواتٍ فكريّةٍ للقمع الذّاتي ، ممّا هو معروفٌ مسطور .

جمهورٌ كهذا لم يكُنْ ولن يكون،لا بالأمس ولا اليوم ولا غداً ، الذي في وُسعه أن يُنتج حالةً من الحجم والنوع الذي قلبَ المسرحَ على البيت الأُموي ، وهو في عزّ قوّته عسكريّاً وماليّاً وأنصاراً. فأسقطه تحت وطأة عار جريمته في "كربلا". ولم يكُن سلاحه إلا ما نُسمّيه اليوم : الإعلام .

السؤال الذي يُطالبنا القارئُ الحصيفُ الآن بالجواب عليه : كيف تمّ ذلك ؟

(٦)

نظنُّ أنّ أوّلَ صوتٍ جماهيريٍّ مُندّدٍ صفعَ القتلَة هو الشعر. وباللشعرِ من وسيلة تحريضٍ فعّالة ، تشحنُ النفوسَ بالغضبَ الخلاّق . يقفُ سيفُ السُلطة تجاهها كليلاً . لكنّ قيمته وطاقته الدّلاليّة ، لمَن يؤرّخُ للتيّارات والحوافز الجمهوريّة

العميقة ، كامنةٌ في التّراكم . لذلك فقد اعتنينا بجمعه وتحليله في كتابنا *أوائل الشعر الحسيني البُكائي ، ديوانه وما فيه من دلالاتٍ ومغازي*. حيث جمعنا ماوصلنا من الشعر الحسيني، الذي نظمه الشعراء بينما كان دماء الشهداء ماتزال طريّةً. فأتى ديواناً متوسط الحجم . مع أنّه جماع ماوصلنا مبعثراً في المصادر دون أن تقصد التّتبُّع . الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد أنّه غيضٌ من فيض. أي أنّه يدلُّ على الهَبّة الشعريّة الهائلة التي أودعها الشعراء ، وأكثرهم مجهولون أو مكتومون حذرَ مُلاحقة السُلطة لهم ، أودعوها أحزانهم واستهوالهم ورعبهم وتحليلهم. وبعضه مُتقدّمٌ في تحليله السياسي والاجتماعي لأبعاد الجريمة الرهيبة وتداعياتها المُستقبلة .

ولن أستفيضَ الآن في بيان مضمون ومغازي ذلك الشعر الحيّ ، لأنّه مهما بسطنا الكلامَ عليه ، سيأتي قاصراً عمّا أودعناه الكتاب . ولن يُغني عن قراءته . لكنني أرجو القارئَ المدقّق أن يُلاحظ ، أنّ أكثر الذين ذُكرت أسماؤهم من الشعراء ، هم من شيعة "دمشق" و"الشام" عموماً . مايدلُّ على دورهم الخلاّق في إطلاق تلك الهبّة الشعريّة المُدويّة ، التي كان لها فعلَ البادئ للتفاعلات السياسيّة المُغيّرة الآتية .

تلك الثروة الشعريّة هي الأثرُ الباقي ممّا أسقط ، وإنْ مؤقتاً، الحَجْرَ الفكري الذي بناه معاوية حول أُنموذجه السُلطوي.

ولا يزال حتى اليوم جزءاً من عقيدة بعض الفرق الإسلاميّة . وسيكون (الإسقاط) قريباً بادئاً لتفاعلاتٍ غاضبةٍ جمّـةٍ جديدة . وجّهت إدانتها وغضبها إلى شخص يزيد ، باعتباره المسؤول الأوّل عن الجريمة. بحيث شاعَ لعنهُ جهاراً على ألسنة الناس في "دمشق".

وقد بقي لنا في المصادر، من آثار تلك التفاعلات ، نصوصٌ على لسان يزيد نفسه ، منها :

" . . . **لمّا قتل عُبيدُ الله بن زياد الحسين بن علي وبني أبيه بعث برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية . فسُرّ بقتلهم أولاً ، حتى بلغه بُغضُ الناس له ولعنهم وسبّهم فندم على قتل الحسين . فكان يقول : لعن الله ابن مرجانة . فإنّه بقتله بغّضني إلى المسلمين . وزرع لي في قلوبهم العداوةَ والبغضاء. فبغضني البَرُّ والفاجر**" " **وكان لعنُهُ يُكتب على جدران المساجد في "دمشق**" (مُقبسُ ببعض تصرُّف بحذف الفضول من الأصل الطويل عن الطبري:٥٠٦/٥ وابن الأثير:٨٧/٤.) .

وليس يعني "ندم" يزيد يقظةَ ضمير ، ولا هُدىً بعد ضلال ، أو أنّه قد ثاب إلى رشده بعد الغيّ . بل إنّه هو نفسه من قبلُ ومن بعد. والذي تغيّر إنما هو الظّرف في الحالَين . أي أنّ النتائج السياسيّة للجريمة ، التي لم تكُن منظورةً بعدها مباشرةً ، قد بدأت تظهر تِباعاً ، بحيثُ باتت تيّاراً ضاغطاً ، أقلق بالـه وأقضّ مضجعه .

كما أنّ قوله " **فبغضني البَرُّ والفاجر**" ليس يعني أبداً أنه كان قبلُ ذلك الحاكمَ المحبوب ، المُقرّبَ من قلوب رعيّته . أو أنّه لم يكُنْ همّه إلا كسب محبّة الناس . وأنّه إنّما خسر ذلك الامتياز بعد وبسبب الجريمة التي ارتكبها عُبيد الله بن زياد على قوله . ويا لبُعد هذا وذاك عن الحقيقة .

ومع ذلك فإنّ ذلك الدّفق الشعوريّ الغاضب كان يُمكن أن يستنفدَ طاقته مع الوقت . فيضيع دون أن يتركَ كبيرَ أثر . لولا أنّ التفاعلات العنيفة العالقة نفسها سرعان مابدأت تأخذ منحىً آخر.داخلَ البيت الأُموي هذه المرّة.

ذلك أنّ البيت كان من بطنين : السفياني ، نسبةً إلى أبي سفيان ، المُستأثر بالحكم بشخص يزيد. والمرواني على هامش السُلطة ، كبيره مروان بن الحَكَم .

وعندما وقعت الواقعة ، وسقط منصبُ الخلافة ذلك السقوط المعنوي المُدوّي ، بـدأ المروانيّون ينحـون باللائمة على يزيد . ليس لأنه قتل الإمـامَ

الحسين(ع). بل لأن قتلَه إيّاه كان بتلك الطريقة العلنيّة الفجّة . بينما كانت له مندوحةٌ عنه بوسائل أُخرى مكتومة. ثم لأنه لم يكتفِ ، بل تثنّى بأن داس ظهره وبطنه بحوافر الخيول. ثم ساقَ نساءه وأطفاله أُسارى يطوف بهم البلاد مُزدهياً بنصره الموهوم .

وكلُّها كان لها بحقّ أبعدَ الأثر وأبلغه فيما وصفناه من سقوطٍ معنويّ ، نال البيت الأُمويّ بشقّيه .

لسنا ندري ما الذي جرى وراء الاستار، من ضُروب النزاع بين الفريقيَن. ولكنّنا نعرفُ من كلام قاله عُبيد الله بن زياد مُخاطباً أهلَ "البصرة"، أن النّزاع الناشب كان علنيّاً مكشوفاً. حيثُ خطب فيهم قائلاً ، من كلامٍ طويل :" . . . **وقد اختلف أهلُ الشام**" (الطبري: ٥/٥٠٥) والمَعنيّ هنا بالتأكيد رجال البيت الأُموي .

لكنّنا ما لبثنا أن رأينا يزيداً ، حوالي شهر ربيع الأوّل سنة ٦٤ هـ/تشرين الأوّل / أكتوبر ٦٨٣ م ، قد ترك عاصمتَه وقصره في "دمشق" . ليتخذَ لنفسه خباءً منصوباً في "حُوّارين" ، حيث يرتاحُ إليه وإليها من "دمشق" وبلبالها . و"حُوّارين" بالنسبة إليه هي البلد الذي وُلد فيه ، وفيه قضى أيامَ نشأته الأُولى مع والدته . وبين أخواله وأنصاره من بني كلب ، الذين عرفنا آنفاً أنّهم هم الذين فرضوه فرْضاً على سُدّة الخلافة .

ما نُرجّحه جداً ، بياناً لاتخاذه هـذه الخطوة غير العاديّة ، أحد أمريَن اثنين :

فإمّا أنه ضاق ذرعاً بالجو العدائي العام الذي كان يُحيطُ به ويُطوّقه ويضغطُ عليه في "دمشق" . مقابل البيئة الحميمة ، التي كان يتمتّعُ بها في مسقط رأسه وملاعب صباه

وفتوّته ، وبحماية أخواله . فكان أن حلّ أزمته بأن لجأ إلى حيث يجدُ الأمنَ والأمان .

وإمّا أنّه رأى الخطرَ المُحدقَ به في "دمشق" من ذوي قُرباه المروانيين ، الذين يبدو أنّهم كانوا قد بدأوا يُفكّرون جّدّيّاً، وربّما لايُخفون عزمهم على التخلُّص منه ومن عاره وسيرته وشناعاته ، التي بات القارئُ يعرفها جيّداً .

ما يؤيّدُ الفرضيّة الثانية ، أنّه صبيحةَ ١٤من شهر ربيع الأوّل من السنة نفسها ، عُثر عليه في الخباء مقتولاً، ومعه إحدى جواريه مقتولةً أيضاً . دون أن يحسّ بهم أحد ، ودون أن يُعرَفَ مَن قتلهما. ما يدلُّ على أنّ القتـل قد تمّ ليلاً، بعمليّة اغتيالٍ خفيّة مُتقَنَة ، نفّـذها أشخاصٌ مُحترفون .

وقد وصف الشاعرُ ابنُ عرّادة التميمي المشهدَ الذي رآه الرّاؤن صبيحة الواقعة وصفاً حيّاً . فكأنّه كان شاهدَ عيان . لولا أنّنا نقطع أن الأبيات قد نُظمت بعد الواقعة بمدّةٍ طويلة . لمكان ذكر وقعة الحَرّة فيها سنة٦٣هـ .

قال :

ياأيها الملكُ المُغلّق بابـه حدثت أُمورٌ شأنهنّ عظيمُ
قتلى بحَــرّةَ والذين ببابـلٍ ويزيد أُعلن شـأنه المكتـومُ
أبني أُميّةَ إنّ آخر مُلككم
جسـدٌ بحُـوّارين ثـمّ مُقيـــمُ

طرقت منيّتُه وعند وساده كـوبٌ وزقٌّ راعـفٌ مـركـومُ
ومُرنّـةٌ تبكي على نشوانةٍ بالصّبح تقعدُ عنده وتقــومُ
(ابن الأثير:٤/١٥٤)

وتحليلُ الأبيات غير عسير على القارئ الحصيف . لكننا نُلفتُ إلى أكثر مافيها أهمّيّةً :

ــ أولاً : إن اغتيال يزيد ، بالنحو الذي نأخذه من الأبيات ، ظلّ مكتوماً عن الناس مدةً غير قصيرة ، إلى أن أُعلن على لسان الذين دبّروا الاغتيال على الأرجح . ما يدلُّ على حالة الاضطراب والفوضى اللذين كانت عليه "دمشق" آنذاك ، بحيث أنّ الخليفة يختفي مدّةً ، دون أن يكترث أحدٌ بالأمر ، ودون أن يسأل أين هو ؟

ــ ثانياً: أنّ المقصود بـ "بابل" هو المكان نفسه الذي سُمّي ونُسمّيه "كربَلا" . "بابل" هو الاسم التاريخي الأصلي . أمّا "كربَلا" كما نلفظها بفتح الباء ، باللغة النّبْطيّة الأرامية "كربُلا" بضمّ الباء ، فهو يعني المقبرة ، بما فيها من قبورٍ ونواويس. إليها أتت الإشارة في كلمات الإمام الحُسين (ع) السّائرة : " **كأنّي بأوصالي تُقطّعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلا** " . . . الخ . " **النواويس** " القبور المنحوتة من الحجر لعليّة القوم . و " **كربلا** " مجموعة القبور العاديّة .

والذي نظنّه قويّاً، أن الكلمة وردت في كلام الإمام (ع) بقراءتها الصحيحة ، أي بضمّ الباء . لكنها حيث أتت في النصوص المكتوبة غير مشكولة . فقد قُرأت هذه القراءة غير الدقيقة . التي شاعت وما تزال . والذي أذكره من أيّام الصّبى ، أن من الناس في "جبل عامل" من كان يلفظها بضمّ بائها .

والأمر هيّن .

الفصل التاسع

السّـرُّ الكبير

(١)

بوصولنا إلى ذروة البحث نقول :

الحقيقةُ أنّنا في، هذا الفصل الختامي، لسنا أمام سرٍّ واحد ، بل سلسلةٍ مُترابطةٍ من الأسرار. كلٌّ منها يسوقُ إلى تاليه. الأمرُ الذي يدلُّ على الطاقة الهائلة ، التي أطلقها البادئُ في كلّ ما تلاه . بدأت بموجة الحزن والغضب الهائلة ، غير المَسبوقة في الإسلام ، التي أطلقتها "كربلا" . نقرأُ اليوم أوفى تعبيرٍ عنها فيما سمّيناه *الشعر الحسيني البُكائي المُبكر*. الذي، بعمله التحريضي، ساق إلى إسقاط خيار الأُمّة المحصور بين السَّلّة والذَّلة . السَّلّة على الأُمة ، وفي المُقابل الذّلّة تجاه العدو الرومي ، التي ساسَ بها معاوية . حيث خضع طيلة أربعين سنةً من حكمه ، بين والٍ وخليفة ، لإملاءات الروم المُذلّة . لا لغرضٍ إلا البقاء في السُلطة بشخصه وببيته. وهي هي السياسة نفسها التي ماتزال معمولاً بها ، من أسف ، بين فريقٍ واسعٍ من حُكام المسلمين . ثم أوصلها (ابنه) يزيد وصاحبه منصور بن سرجون إلى مشروعٍ يعملُ على إعلان الرِّدّة الوشيك في المنطقة الشاميّة . ولم تُسقطه إلا روحُ الشهادة البِكر التي خلّقتها "كربلا"

تخليقا ، من حيث لم يكُن يحتسبها أحد .

هوذا ما لم ولن يفهمه المُتفيقهون ، الذين لايرون في "كربلا" إلا أنّها نزاعٌ على الإمساك بالسُلطة. ونحن من جانبنا نتفهّمُ نُزوعَهم هذا جيداً . من حيث أنّ الحزن والغضب ، كالألم وكالشّوق ، لايفهمه إلا مَن يُكابده .

(٢)

كان اغتيال يزيد أكبرَ بكثير من اغتيال شخص أيّاً يكُن موقعه . من حيثُ أنّه أفقد عربةَ الرِّدّة حصانها . وأنّه ساق إلى فترةٍ عنيفةٍ مُضطربةٍ استمرّت بضع أشهر. من ربيع الأول إلى ذي القعدة سنة٦٤ هـ. أثناءها تبادل فريقا البيت الأُموي لغة الاغتيال. الفريق السفياني سارع إلى إعلان معاوية بن يزيد خليفة . دون أن يكترث بشكوى الفتى الغَرّ من توريطه في المعركة العالقة . فردّ المروانيّون باغتيال ذلك المسكين ، وإعلان كبيرهم مروانَ بن الحكم خليفة . لكنّ هذا الدّاهية العجوز لم يتمتّع بالمنصب طويلاً . فاغتيل هو الآخر عن قريبٍ بعمليّةٍ مُدبّرة .

والطريف أنّ الفريقيَن كانا يحرصان كلَّ الحرص على تغطية الاغتيالات المُتبادلَة. بتجنُّب توجيه الاتهام إلى الجانين ، مع علمهم بمَن وراءهم على الأقلّ . ومن ثَمّ بتوليف رواياتٍ مزعومةً لأسباب موت الخلفاء الثلاثة بالتوالي، في غضون سنةٍ

تقريباً. بما يكفي لإزاحتها عن فضيحة الاغتيال على أيدي ذوي قرباهم . الأمر الذي سيودي إلى غير المصلحة المُشترَك بينهما.

وللقارئ الطُّلعة أن يطّلع على تلك الروايات الواضحة الصّنعة في كُتُب التاريخ المعروفة .

ذلك الوضع المُضطرب، حيث انهمك فريقا البيت الأُموي بنزاعهم المُتمادي الغبي ، هو الذي انتهزه الزُّبيريّون للمضيّ بتوسيع رقعة ملكهم، بحيث وصل إلى "دمشق" نفسها . وفي المقابل انحسرالأُمويون إلى رقعةٍ صغيرةٍ من تلال "البلقاء"، قريباً من موقع مدينة "عمّان" اليوم .

ولولا الأخطاء السياسيّة الفظيعة التي ارتكبها الزُّبيريّون بالتمادي، ممّا أشرنا إلى بعضه آنفاً ، لانتهى ملك بني أُميّة إلى الأبد، كما تنبّأ لهم الشاعر التميمي الصّادق الرؤية، في الأبيات التي سُقناها وعلّقنا عليها في خواتيم الفصل السابق .

هو ذا الوضع الذي سيصعدُ على قاعدته بطلُ المرحلة القادم ، عبد الملك بن مروان ، الذي سيكون علينا أن نفرغ له في الفقرة التالية .

(٣)

والحقيقةُ أنّ المرءَ ليتملّكه العجب من الصعود السريع لعبد الملك . بحيث أنّه تسنّم سُدّة الخلافة في " دمشق " بعد

سنة تقريباً من خروجه من "المدينة" ، إلى حيث بدأ نشاطه السياسي . مع أنّه انطلق من قاعدةٍ مُفكّكَةٍ ، كما بات القارئ يعرفُ جيّداً . ثم لاحق الزُّبيريين إلى أن قضى عليهم قضاءً مُبرماً سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢ م . الأمر الذي عجز عنه معاوية ويزيد من قبله. كما أنّه قضى على كلّ مَن يُخشى خلافُه من السفيانيين . وبذلك بات الخليفةَ دون مُنازع مدّة ثلاث عشرة سنة عدّاً. وليتوارثها أخلافه من بني مروان من بعده مدّةً تزيد قليلاًعلى نصف قرن.

ولطالما رأينا الباحثين، من شرقيين وغربيين، يتخبّطون في تفسير إحيائه المُدهش لخلافة بيته الأُموي ، بعد أن بات في حالة النّزْع المؤلم التي وصفناها . دون أن ينجحوا في تقديم تفسيرٍ يُقنع القارئَ اللبيب. وماذلك إلا لأنّهم يُحاصرون أنفسَهم وأبحاثَهم في مصادر التاريخ الرسمي ــ السُلطوي،المُتحيّزة دائماً إلى جانب السُلطة . ويتنكّبون أو يجهلون أو لايصبرون على مصادر التاريخ الإنساني المُختلفة ، في كُتُب الأدب أو الحديث أو الفقه أو البلدان .

الذي نذهبُ إليه ، أنّ الفضلَ كلَّ الفضل في ذلك الإنجاز التاريخي العجيب لعبد الملك ، الذي نفخ الروح في الدولة الأُمويّة المُتهالكة ، إنّما يرجع إلى المعونة القويّة الحاسمة التي بذلها له الشيعة ، الذين استقرّ بهم المقامُ في

غير بقعةٍ من ربوع "الشام"، بالهجرة الهمْدانيّة الكُبرى إليه. حيث ناصروه في حربه المصيريّة مع مصعب بن الزُبير في معركة "دير الجاثليق" الحاسمة عام ٧٢هـ . ذلك رأيٌ أعرفُ أنّه سيُفاجئ بعضَ القُرّاء. وربما حرّك دهشتهم وعجبهم. لأنهم لايجِدون في كلّ كُتُب التاريخ ، قديمها وحديثها ، جليلها وصغيرها ، أدنى إشارةٍ إلى شيءٍ من ذلك .

مُستندنا فيما ذهبنا إليه خبرٌ جاء في كتابٍ من الكُتُب المعنيّة برجال الحديث . يعترفُ فيه عبد الملك لهمدانيي مدينة "حمص" اعترافاً صريحاً بفضل همْدانيي "الشام" عليه في كسْبه المعركة الفاصلة مع مصعب بن الزُبير، التي انتهت بنصرٍ ساحقٍ له ، وبقتل خصمه القويّ. وبذلك استتبّ له مُلْكُ "الشام" و"العراق" دون مُنازع . ثم أنّه امتثل لطلبٍ من همدانيّي "حمص" بعزل عمّه يحي بن الحكم عن الولاية على المدينة، تحت طائلة قتل العم إن هو لم يمتثل للطلب. الأمر الذي يدلّ على ماكان للهمدانيين من نفوذٍ أدبيّ على عبد الملك. جزاءً وفاقاً لِما سبق أن طوّقوا به عنقه من جميل .

نصُّ الخبر طويلٌ وغنيّ . وقد نقلناه مشفوعاً بذكر سنده . ثم عزّزناه بالتعليق عليه بما يساعدُ القارئ على فهمه ، ويُبيّنُ ما فيه من مغازي في الغاية من الأهميّة ، وذلك في كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية*/٩٥ وما بعدها .

لذلك ، واجتناباً للتكرار غير المُجدي ، أدعو القارئَ الطُّلعة إلى الرجوع إليه هناك إن أحبّ .

لكنّ هاهنا إضافةٌ لم نعرض لها من قبل في الكتاب ، لأن عنايتنا هناك كانت مقصورةً على إشكاليّة انتشار الشيعة غير المُتوقّعَة في المنطقة الشاميّة .

أمّا هاهنا فالأمرُ مختلف .

الإضافةُ تبدأُ بسؤاليَن اثنيَن :

كيف ولماذا اتخذت همدانُ "الشام" ، التي كانت تنتشر بأعدادِها الكبيرة في "حمص" وجوار "بعلبك" وفي شمال " جبل لبنان" وفي "غوطة دمشق" أو في شطرٍ كبيرٍ منها على الأقلّ ، ــ اتخذت قرارَ نصرة عبد الملك على مصعب بن الزبير؟

وضمناً هل يمكن أن نتحدّثَ عن دورٍ لإمام الزمان ، الإمام زين العابدين (ع) ، في ذلك القرار ؟

في سبيل الجواب عن السؤالين ، ثمة عدة ملاحظات يحسُنُ بنا أن نأخذها بعين الاعتبار:

ــ الأُولى: إنّ همدان "الكوفة"، التي أتى منها همدانيّو "الشام" ، عُرفت بولائها المُطلق ، الذي لم تَشبْه شائبة ، لإمام الزمان . فكانت في كلِّ ما نعرفه من أعمالها ومواقفها لا تخرجُ عن قوله وأمره ونهيه . ولم يُعرف عنها إطلاقاً أنّها عملت أو وقفت إلا حيث يكونُ الإمامُ فعلاً وقولاً .

ـ الثانية : إنّ عبد الملك كان في أوّل أمره ، قبل أن يُفسدَه السلوكُ في لُعبة السُلطة ، أحدَ كبار أهل الفقه الأربعة في "المدينة" . حتى قال فيه أحد كبار فقهائها وأهل الحديث فيها : " **لقد رأيتُ المدينة وما فيها شابٌّ أشدّ تشميراً ولا أفقه ولا أنسك من عبد الملك**" (ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق: ١٠/٢٥٤) .

ــ الثالثة : إنّ قرار الحرب والسلم في الإسلام لم يكُن أبداً للناس وحدهم ، يقضون فيه من عنديّاتهم . فيُعلنون الحربَ والأمنُ مُستَتِبّ . أو السّلمَ والحربُ ناشبة . بل إنّ القرار كان حصراً لوليّ الأمر. أي عند الشيعة الإمام حين يكون حاضراً . بدونه لن يلقى القرارُ الاستجابةَ المطلوبة من الناس. لذلك لم تنجح حركةُ التّوّابين الانتقاميّة ، مع أنّ الذين أطلقوها كانوا رؤساء وقادة الشيعة في"الكوفة" . وأنّ المدينة كانت تشتعلُ غضباً وندماً وشهوةً للإنتقام . وما ذلك الفشل النسبي إلا لأن أربابها لم يكترثوا بالحصول على مُسوّغٍ لحراكهم القتالي من إمام الزمان.

أمّا الهمدانيّون فقد كانوا يعون القاعدة جيّداً . نظراً لتجربتهم الطويلة مع الإمامَين علي والحسن(ع) بـ "الكوفة"، ونظراً أيضاً لتجربتهم التاريخيّة من تراثهم الحضاريّ في "اليمن".

لذلك فإننا نستبعدُ جدّاً أن ينفردوا هم من عنديّاتهم بقرار الحرب بجانب عبد الملك ، مع وجود الإمام زين العابدين

(ع) . خصوصاً وأنّهم يعرفون أنّهم ذاهبون إلى حربٍ كبيرة ، ضدّ فريقٍ من المسلمين . يقودهم رجلٍ خبير ، تحت يده قوةً قتاليّةً كبيرة حسنة التنظيم . أهّلته لأن يبسط سُلطانه على " الحجاز" وماوالاه وعلى"العراق " وأكثر" الشام ". كيما يُناصروا رجلاً ، كلُّ زاده ماقد سبق أن عرفناه من صفاته الشخصيّة . لكنّه يفتقرُ بشدّة إلى الوزن والتجربة السياسيّة الشخصيّة . ليكونوا هم وحدهم عماد قوته المُقاتلة .

ــ الرابعة: إنّ الإمام زين العابدين (ع) كان يسكنُ "المدينة" أيضاً ، منذ أن رجع من "دمشق" بعودة سبايا "كربلا" إليها. وما من ريبٍ في أنّه كان يُراقب ما كان يحصلُ في "دمشق" من وقائع وأحداث ، لايُمكن أن تنتهي إلى خيرٍ على الأُمّة . وكلّها ممّا بات القارئُ اللبيب على خُبرٍ به . الأمرُ الذي لايصحُّ لإمامٍ في موقعه أن يسكتَ عليه .

فمن هنا يصحُّ منّا أن نُخمّنَ تخميناً على الأقلّ ، أنّ الإمام (ع) رأى في ذلك الشابّ الأُمويّ الفقيه العابد النّاسك، أملاً جِدّيّاً في رجلٍ يُمكنُ ، بما في شخصه من صفات ، أن يكون دماً نظيفاً يدخلُ في عُروق لُعبة السُلطة من بابٍ واسعٍ وجاهز، باعتباره من البيت الأُموي الحاكم . فكان أن أوعز، بوسيلةٍ أو بغيرها ، إلى أوليائه الهمْدانيين في أنحاء "الشام" ، بمناصرته على خصمه الجبّار مصعب بن الزبير.

وفي ذلك ، إنْ صحّ تخمينُنا ، دليلٌ لا يُدحَض على حيويّة النّوازع السياسية في التشيّع ، وعلى اتساع خياراته في النطاق السياسي ، لكلّ ما يُمكن أن يأُولُ إلى أيّ مافيه مصلحة الأُمّة اولاً وبالذّات .

ولعلّ ممّا يؤيّدُ هذا التّصوُّر،أن كلّ الحركات الشيعيّة، أو المحسوبة على الشيعة والتّشيُّع ، من الحركة الكيسانيّة ، إلى حركة المختار الثقفي ، التي رفعت شعار الاقتصاص من كلّ الذين شركوا في دماء شهداء "كربلا" ، ــ كانت تتصلُ ، في مطلع حراكها، بالإمام في "المدينة" ، أو بغيره من المُتصلين بآل البيت بسبب ، طالبةً تأييده لها . لأنّها تعرف أنّها بدونه فإنّ طريقها إلى قبول الناس لها لن يكون سالكاً . وكان الإمامُ يُجيبُ أو يُهمل حسب ما يرى من صدقٍ ومصلحة . الأمرُ الذي يدلُّ على ما كان له من نفوذٍ أدبيٍّ بالغٍ على جمهور الشيعة أينما كانوا. على الرغم من انحسار نشاط التّشيُّع إجمالاً في فترة إمامته ، بعد وبتأثير مُصيبة "كربلا". الأمرُ الذي يُمكنُ سحبَه بسهولة على ذلك القرار التاريخي لهمدانيي "الشام"، بمُناصرة عبد الملك على مصعب بن الزبير.

ونحن إنّما عرضنا آنفاً تلك المُلاحظات الأربعة ، فإنّما على سبيل تعزيز الاحتمال المعقول والمقبول ، والذي ينسجم مع طبيعة الأُمور. الذي يذهب إلى أنّ الإمام زين العابدين (ع)

هو الذي كان وراء نهوض عبد الملك ، وانقلابه غير المُتوقّع من عالَم الفقه وأهله ، إلى عالَم السياسة والحرب وبلبالها . آخذين بالاعتبار أنّه كان يُمثّلُ آنذاك حلاًّ ممكناً يُعتدُّ به لأزمة الأُمة . التي بدأت بخضوع معاوية الذّليل للدولة الروميّة ، وتحكيمها بمُقدّرات المنطقة الشاميّة طوال أربعين عاماً من حُكمه . ثم تطوّرت على يد يزيد ومنصور إلى مشروع ردّة ، ستُصيبُ الإسلام ، بحال وصولها إلى مقاصدها، في الصميم .

ولنُلاحظ في خاتمة هذا العرض ، أنّه من المستحيل على المؤرّخ اليوم أن يُفسّرَ ميلَ همْدان "الشام" شبه العام إلى جانب عبد الملك في حربه ، عن غير سابقةٍ لها معه ، وهو الذي كان من سكَنَة "المدينة" . ينحصرُ حضوره الشخصي في جوّ الفقهاء وأهل الحديث فيها ، دون فرْض عاملٍ معنويٍّ قويٍّ جَدَّ فأنشأ حوافزها الجديدة تجاهه . وليس في الميدان إلا إمام الزمان زين العابدين (ع) .

كما أنّ من المستحيل أيضاً، بالدرجة نفسها، تفسير نهوض فانتصار عبد الملك على خصمه القوي ، في ظل الفارق الكبير في ميزان القُوى بين الخصميَن لمصلحة مصعب، وفي ظل الانهيار المادّي والمعنوي الكبير بكلّ المعاني للبيت الأُموي ، دون أخذ العامل القتالي لانحياز همدان "الشام" إلى جانب عبد الملك بعين الاعتبار.

وعلى كلّ حال ، فإنّ كلَّ ما عرضناه من ملاحظات وقراءات وتحليـلات هو غايةُ جُهد الفقير المُعَنّى ، في ظـلّ الغياب التّـامّ للنّصوص الصّريحة ، التي يُمكن أن تُجيبُ على الأسئلة المؤرقـة ، التي تفـرض نفسها فرْضاًعلى المؤرّخ المُدقّق. حيث لايجِدُ نصّاً صريحاً يُريحهُ من ذُلِّ السؤال . لأنّ ذلك وشبهه ، إنما يُدبَّرُ خلفَ نطاقٍ صلبٍ من السّرّيّة المُحكمَة ، وراء الأبواب المُغلَقَة. فلا يندُّ عنها نأمةٌ إلى غير الذين يُدبرونه والضّالعين فيه . وذلك واضحٌ جليٌّ لا شِيَةَ فيه ، ولا معدى عنه إلى غيره .

لكن ما أنْ وطّد عبدُ الملك أركان سُلطانه في "الشام" و "العراق" ، حتى انقلب على الفقيه النّاسك الذي كانه. ليغدو ظالماً جبّاراً غشوماً مُتجاهراً بكبائر المعاصي. حتى أن الذهبي، الذي نعرفه مؤرّخاً سُلطويّاً بامتياز يتفنّنُ بتخليق المعاذير لتغطية آثام السلاطين ، اعتذر عن الترجمة له في كتابه *سير أعلام النبلاء*، على الرغم من "**جرائمه**" حسب قوله ، بأنّه كان عالِماً. كما روى أنّه كثيراً ماكان يجلسُ إلى أُمّ الدرداء، زوجة الصحابي أبو الدرداء، في مؤخّر المسجد الجامع بـ "دمشق". فقالت له يوماً : " **بلغني أنّك تشرب الطُّلاء** (خمرٌ يُصنعُ من التمر أو الزبيب) **بعد النُّسك والعبادة**" . فقال :" **إي والله والدماء**" (سير أعلام النبلاء: ٤ /٢٤٨و ٢٤٩ بالتوالي) .

والحقيقةُ التي لم يلتفت إليها، أو على الأقلّ لم يُلفتنا إليها ، لا الذهبي ولاغيره من المؤرّخين، أنّه هو الذي ابتدع سياسة القتل الذّريع في الإسلام . حيث سلّط على الشيعة في "العراق" رجلَه السفّاك الأثيم الحجّاج بن يوسف الثقفي، فأحاله إلى بحرٍ من الدماء، لم يجفّ طيلة فترة ولايته عليه .

(٤)

بالعودة إلى عمود البحث وإشكاليّتَه الأساسيّة ، بعد ماغادرناه من انعطافةٍ ، لم يكُن منها بُـدٌّ لمصلحة البحث والقارئ ، نقول :

ومع ذلك كلّه . مع كلِّ ما سلك فيه عبدُ الملك الخليفة من ضُروب الانحراف والآثام والمظالم الرهيبة ، فإننا نذكرُ له ، بالتقدير وبالمقدار الذي يستحقّه عندنا وعند الله تعالى ، أنّه هوالذي خرج على سياسة أسلافه الخانعة الذليلة تجاه الروم ، التي بات القارئُ على خُبْرٍ جيّدٍ منها . وذلك بأن عزل سرجون بن منصور من منصبه بوصفه المُمسك بديوان الخراج ، الذي عرفنا أنّه كان يتضمّن الإشراف على قيوده الماليّة ، التي كان يُحرّرها باللغة اليونانيّة ، مثلما كانت عليه أيّام حُكم الروم . بالإضافة إلى إطلاق يده في الجباية والصّرْف بعوائد " الشام". بما فيه تسديد مائة ألف قطعةٍ نقدٍ ذهباً منها سنويّاً إلى خزينة الدولة الرّومية في" القسطنطينيّة " . كلُّ ذلك بالإضافة إلى

الحَجْر على أنشطته وتدخّله بالقرار السياسي للدولة، بوصفه المندوب السامي السياسي للرّوم ، داخل جسم الدولة الإسلاميّة في "الشام" . وبذلك أسكت نهائيّاً ذلك الدّاهية، الذي لم يكفّ يوماً عن الكيد للإسلام وللمسلمين . مُستفيداً من عدم اكتراث معاوية بشأنه وبأعماله . ما دامت لا تتعارضُ مع مصلحته الشخصيّة المحصورة ببقائه على رأس السُلطة ، مهما يكُن موقعُهُ فيها مجزوءاً منقوصاً . ثم سلوك يزيد من بعده في السياسة نفسها ، إلى درجة الضُّلوع فيها وأكثر بكثير ، كما عرفنا آنفاً .

ثم أنّ عبد الملك هو الذي اتخذ البادرة التاريخيّة ذات الأهميّة الكبيرة . حيث سكّ ونشر أوّل نقد/عُملة إسلاميّة . لتحلّ محل النقد/العُملة الرّومية، الذهب(الديناريوس) والفضّة (الدراخما) ، التي كانت مُعتمدة حصراً من قبله في كلّ دار الإسلام . وذلك بأن أمر سنة ٧٧هـ /٦٩٦ م، واتخذ التدبيرات اللازمة ، بسكّ أوّل عُملةٍ مُحلاّة بالرموز والشعارات الإسلاميّة. لتحلّ محل الروميّة، بما عليها من رموز وشعارات مسيحيّة. مع الأمر بمنع تداول هذه بتاتاً ، تحت طائلة العقوبة الشديدة الرّادعة . كما دبّرَ أن يكون تدوين الدواوين بالعربيّة بدلاً عن اليونانيّة . وبهاتين الخطوتيَن المُترابطتيَن حقّق الاستقلال النّاجز للدولة، بعد عقودٍ من الارتهان الخانع للروم . توّجهما بأن امتنع

عن سياسة أسلافه الذّليلة بتسديد عوائد " الشام" إلى خزينة "القسطنطينيّة" . ثم أنه بعد سنتين عقد معاهدةً مع الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني ، نظّمت العلاقةَ بين الدولتين على نحو مايكون بين دولتين ندّتيَن ذاتَي سيادة . مايدلُّ على أن البيزنطيين أذعنوا في النهاية لنمط العلاقات الجديد ، وتقبّلوا الواقع الذي خلقته ، وأنّ خطوات عبد الملك الثوريّة قد مرّت بسلام .

(٥)

المؤرّخون ، على مختلف مشاربهم ، يُشرّقون ويُغرّبون في علّة إقدام عبد الملك ، خلافاً لأسلافه ، على تلك الخطوات التأصيليّة الجذريّة . مع ما قد يكونُ فيها من خطرٍ قد ينال من منصبه ، الذي أزهق في سبيل الحفاظ عليه الآلاف المؤلّفة من الأنفس .

من جانبنا، نحن لانشك في أنّ النوازع الأساسيّة، التي حرّكت همّةَ عبد الملك باتجاه ذلك الطريق الصّعب ، هي من بقايا أيامه الماضية في "المدينة"، وإنْ تكُن قد باتت الآن نِسياً مَنسيّا عنده وعند الناس ، جرّاء مظالمه الرهيبة . بحيث أنّ غير العارف ليأخذه العجب إن قيل له أنّ ذلك السفّاك الأثيم ، الذي أجرى نهراً من الدماء على طول دار الإسلام وعرضه، قد كان قبل بضع سنين فقيهاً ناسكاً ذا مكانةٍ بين فقهائها. ومع ذلك

نقول ، ما من شيءٍ ممّا ركز زمناً في الأنفس يفنى كلّه دونما أثر .

هنا ثمة روايةٌ ، ينبغي إضافتها إلى حافزه الأساسيّ الكامن، لأنّها تُبيّنُ لنا ما، أو بالأحرى: مَن؟ ، الذي وجّهه إلى تدبيره الرئيس ، بسكّ النّقد الإسلامي وماتلاه وترتّب عليه. نُقدّمُ لذكرها وبيانها بالوقوف على مُقدّماتها وماساق إليها.

ذلك أنّ عبد الملك التفت ، أو بالأحرى أُلفت ، إلى أنّ صُنّاع الطّراز في "مصر" ، أي الذين يُطرّزون الملابس والسُّتور وماإليها، كانوا يُطرّزون مصنوعاتهم بشعاراتٍ ورموزٍ مسيحيّة. لأنهم كانوا من سكّان"مصر" الأصليين ، الذين ورثوا مهاراتهم في المهنة وتقاليدهاعن أسلافهم . فأمر واليها، أخاه عبد العزيز، بإبطال ذلك الطراز. واستبداله بآخر فيه شعار التوحيد ، والشهادة بلاإله إلا الله وما ناسبهما.

لمّا بلغ ذلك امبراطورَ الروم قسطنطين استشاط غضباً ، فكتب إلى عبد الملك يطلبُ منه إعادة الطراز إلى ما كان عليه . وطبعا أبى هذا . وآلت المُراسلات بين الاثنين إلى أن وصل إلى أن هدّد الرُّوميُّ بأنه سيأمر بنقش الدنانير والدراهم بشتم النبي (ص) . وبذلك سيكون المسلمون مُضطرّين إلى أن يتداولوا بأيديهم ما فيه النّيل الصريح من نبيهم. وبذلك وضع عبد الملك بين خيارَين كلاهما مُرٌّ علقم .

بنتيجة تداول الرأي في المُعضلة ، اقترح عليه صاحبُ شرطته، الذي كان بمثابة الوزير له، روح بن زنباع (ت:٨٤هـ /٧٠٣م)، أن يكتبَ إلى الإمام الباقر(ع) يستدعيه ، عسى أن يكون لديه " **الحيلة** " لخلاص الخليفة من ورطته . وهكذا كان . فحضر الإمامُ (ع) . وأشار عليه بأن يأمرَ بضرْب السّكة . وبأن يجعلَ النّقشَ على أحد وجهيها كلمة التوحيد . وعلى الوجه الثاني، في مَدار الدينار والدرهم ، ذكـرُ البلد والسنة الذي **ضُرب فيه** (محسن الأمين: *أعيان الشيعة*:١/ ٦٥٤،عن البيهقي في *المحاسن والمساوئ*/٣٤٣ ، يرفعها إلى الكسائي بحق روايته مُشافهةً عن هرون الرشيد ، الدميري: *حياة الحيوان*:١/٩٨ ، وغيرها)

أوّلُ دينارٍ إسلاميّ ضُرب ، عليه صورة عبد الملك

من وُجهة نظرٍ نقديّة ، فإنّ الرواية قويّةٌ متينة ، غنيّةٌ بالتفاصيل الدقيقة الدّالّة على صحته (منها دور ابن زنباع فيها ، الذي عرفنا موقعَه لدى عبد الملك) التي تجعلُ من الرّيب

بصحتها عسيراً على النّاقد. خلا نقطة وحيدة، هي أنّ ابن زنباع توفي سنة٨٤هـ /٧٠٣م . وعبد الملك توفي سنة ٨٦هـ/٧٠٥م . بينما إمامة الإمام الباقر(ع) بدأت سنة ٩٥هـ /٧١٣م، أي بعد وفاة ابن زنباع بأحدَ عشرة سنة ، ووفاة عبد الملك بتسع سنوات. والتّخلُّصُ من الإشكال غير عسير، وذلك بالقول أنّ شُهرة الإمام الباقر(ع) ، بوصفه ذلك العالمَ الواسعَ العلم ، الذي أكسبه لقبَه الباقي، سابقةٌ على وفاة أبيه الإمام زين العابدين(ع) ومن ثَمّ انتقال الإمامة إليه . أي أنّ قرار إيكال حلّ المُشكلة المُستعصية إليه ، إنّما استقرّ عليه لشُهرته العلميّة الباهرة ، وليس لأنّه الإمام الذي ينبغي الرجوع إليه في المُعضلات .

وعلى كلّ حال ، فإنّ من المعلوم أنّ منصبَ الإمامة بنفسه لم يكُن له ذلك الاعتبار عند أرباب السُلطة في "دمشق" يومذاك . ليُقال أنّ تلك المُقارنات التاريخيّة تبعثُ الرّيبَ في صحة الرواية .

هكذا قضى عبد الملك، بعمله برأي الباقر(ع) ، على آخر مواطن الخلل المُزمنة في جسم الدولة الإسلاميّة ، وأكسبها السيادة غير المنقوصة على كامل شؤونها. بعد نصف قرنٍ تقريباً من الخُضوع الذّليل لغطرسة الدولة الرُّوميّة.

أخيراً نقول ، إن في اهتمام الإمام بالأمر، بحيث شخُصُ بنفسه إلى "دمشق" للمُشاركة بالرأي بشأنه، بالإضافة

إلى ما ذكرناه آنفاً، من معونة همْدان الحاسمة عبدَ الملك في حربـه ضدَّ مصعب بن الزبير، ـ لدليلٌ قاطعٌ على تحرّر التّشيُّع السياسي من الأغراض الضيّقة ، وتقديمه ما فيه مصلحة الأُمّة على أي اعتبارٍ آخَر. خصوصاً أنّ مُساهمة الإمام بالرأي الصواب أتت بعد أن كان عبد الملك قد كشف عن وجهه البشع الذي عرفناه.

(٦)

بقي سـؤالٌ أظنُّ أنّه يُلِحُّ الآن على القارئ الحصيف ، الذي رافقنا في فصول الكتاب السابقة ، هو:

حسنا ، ها نحن قد عرفنا أنّ سرجون، الذي كان يُديرُ بعض الشؤون الهامّة للدولة بإصبعه ، قد دالت أيّامُه . ونُضيفُ الآن ، إلى درجة أنّه لايُعرَفُ متى وأين وكيف مات .

لكنْ ماذا عن ابنه منصور/ القدّيس يوحنّا الدمشقي ؟

الجواب يستدعينا أن نعودَ بالزمان وأحداثه قليلاً إلى الوراء، لنقول :

إن موضع الأب لم يتغير كثيراً باغتيال يزيد ، وما تبعه وترتّبَ عليه من اغتيالاتٍ مُتبادَلَةٍ بين بطنَي البيت الأُموي بحيث أودى إلى انهياره . بل ظلّ في الأثناء على ماكان عليه : يُمسكُ بديوان الخراج . ويتصرّفُ بالعوائد الماليّة وبقيودها جبايةً وصرْفاً بما يشاء . ويُسدّد المعلوم إلى خزانة " القسطنطينيّة " .

وبل بقي على حاله حتى بعد سنوات من أيام عبد الملك .

أمّا الإبنُ فأمره مُختلفٌ كلَّ الاختلاف . لأنّ كافة أعماله، فيما رأينا فيه بحقّ تمهيداً عملانيّاً لإعلان الرِّدّة العامّة، من تجريحٍ ونيْلٍ علنيٍّ من الإسلام وقرآنه ونبيّه ، كانت تتمُّ بالحماية المُباشِرة له من يزيد ، إلى درجة أنّ إعلانها كان يتمُّ في قصره وبحضوره . فلمّا اغتيل حاميه فقدَ المظلّة التي كانت تُغطّيه وتحميه . بل ونشأ وضعٌ سياسيٌّ لم يعُد يأمنُ فيه على نفسه . فتودي به أعمالُهُ الاستفزازيّة الوقحة إلى إسكاته نهائيّاً بالقوة . كما هو مُتوقّعٌ لو انّه كان يرتكبُها بغياب الحماية والحامي . لذلك فإنّه ماأن اغتيل حاميه ، حتى أقلع من "دمشق" إلى أحد الأديار القصيّة ، حيث أمضى ما بقي له من العمر .

نتيجـةٌ ومَزيـد

وفيه نُلخّص النتيجة التي أوصلنا إليها البحث ، تحت مختلف العناوين التفصيليّة . معونةً للقارئ على أن يتملّكَ من الفكرة ، أو تتملّكَ منه ، لا فرق . وقد تُغريه بالعودة إلى متن الكتاب عند الاقتضاء طلباً لتعزيز بعض ما سنقفُ عليه من نتائج . ونُثنّي بالوقوف مع إشكاليّاتٍ تفصيليّة ، حالَ دون معالجتها في متن الكتاب الحِفاظُ على الخطّ المستقيم للكتاب ، واجتناب التعرّجات غير الدّخيلة في إشكاليته الأساسيّة .

(١)

هذا الكتاب ، على صغر حجمه ، ثمرةُ بحوثٍ وتأملاتٍ عميقةٍ طالت مدّة شهور. كان ميدانُها أحداثٌ ومأثوراتٌ علِقتْ أو أُعلنتْ في فترة البحث. أكثرها يندرج فيما يستحقُّ أن يُسمّى الجانب غير المَرأي من تاريخنا .

هناك يكمنُ مايتجاهله رُواةُ التاريخ عادةً ، أو ما يكتفون من ذكره بإشاراتٍ سريعةٍ مقطوعةٍ عن سياقها ، ممّا له معنى التّجهيل . لالسبب إلا لأنّها في غير صالح السُلطة الحاكمة . تاركين للباحث المُدقِّق من بعدهم أن يُعيدَ تركيبها من نُتَفٍ مُمزّقَة ، ابتغاء أن تكون مفهومةً ، ومن ضمن قصّة . مدفوعاً بحسٍّ قويٍّ ، لكنّه غامضٌ ، بأنّ ثمّةَ عنصرٌ مفقودٌ ،

فيما تحت يده من مُعطيات النصوص ، بدونه تكون قاصرةً عن تفسير أحداثٍ كبيرةٍ ثابتة .

(٢)

أكثر تلك النصوص أهمّيّةً ، بالنسبة لإشكاليّة الكتاب ، هي ذات العلاقة بنمط العلاقات المُلتَبس ، التي نهضت بين الدولة الروميّة المهزومَة بعد أن حكمت "الشامَ" طويلاً ، وبين الحُكم الفعلي في ولاية "الشام" . حيث نجح الرّوم ، على الرُغم من هزائمهم المُتوالية ، في انتزاع مكاسبَ أهّلتهم لأن يكونوا بمثابة شُركاء كاملي الشّراكة في حُكم الولاية . بواسطة وكلائهم في جسمها الإداري . لابسبب إلا استخذاء معاوية وخضوعه لإملاءاتهم . تحت طائلة تهديدهم إيّاه بالحرب في الظاهر. مع احتمال أن تكون ثمّةَ سببٌ أو اسبابٌ أُخرى خفيّة.

سياسة معاوية الخانعة هي التي قادت إلى تحريك أطماع الروم باتجاه استعادة "الشام" بالدهاء . خصوصاً أنّ الكثرةَ الكاثرة من السكان كانت حتى ذلك الأوان من المُوالين لهم ضمناً ، وهم سيُرحّبون ويُؤيّدون بالتأكيد عودةَ أسيادهم بكلّ وسيلة .

(٣)

في سبيل هذا المَرمى ، من ضمن خطّةٍ طويلة النّفَس ، جرى إعدادُ يزيد وتربيته ليكون بطلَ الرِّدّة القادمة . كما إعداد

صديقه ورفيق صباه وفتوّته منصور بن سرجون ، القديس يوحنا الدمشقي فيما بعد ، ليكون في موقع المُنظّر للمشروع . ثم ما لبث العملُ الجِدّي والعلني ، باتجاه الخطوات التمهيديّة الأخيرة، أن بدأ بمجرّد تسنُّم يزيد كرسي الخليفة وبحمايته الشخصيّة.

(٤)

لسنا نجِدُ في كلام الإمام الحسين (ع) ما يدلُّ صراحةً على أنّ ذلك الوضع الخطير كان حافزاً له ، وهو يسيرُ في درب الشهادة . لكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ الإمام كان يُدرك أنّ إعلانه من قِبَلِه ، سيكون له مفعول عكسيّ أيضاً . من حيث هو قمينٌ بأن يُحرّك أمثالَه في "مصر" و"العراق" . بل وحتى في "الحجاز" في ذلك الأوان المُبكّر . حيث كان الإسلام ما يزال فيه قشرةً صفيقةً ، فرضت نفسها فرْضاً على أكثر الاعراب ، فقط بفضل انتصارات النبي (ص) السياسيّة والعسكريّة . كما أنّه فرض سُلطته فرْضاً على أهل "مصر" و "العراق" بالفتح العسكري . وإلا سيكونُ علينا أن نفترضَ أنّ الإمام لم يكُن يعلمُ بما كان يجري على قدمٍ وساقٍ في "دمشق" ، مع أنّه لم يكُن خفيّاً على أحد . أو أنّه كان يعلم ، لكنّه آثر السكوت عنه على خُطورته دون سببٍ موجب . وهذه فرضيّةٌ في درجة ومعنى المستحيل عندنا .

(٥)

مهما يكُن وجهُ الصواب في الجواب عن هذه التساؤلات ، فإنّ ما يُهوّنُ الحاجةَ إليه ، أنّ من المؤكّد أن السقوط النهائي لمشروع الرّدّة وأبطاله ، قد حصل بفضل تداعيات يوم "كربلا". وفي طليعتها اغتيال يزيد وما تلاه وترتّب عليه بالتوالي، ممّا بات معروفاً للقارئ . وبذلك خسر المشروع حصانه وحاميه . الأمرُ الذي فرض على شريكه منصور أن يتخلّى عن كلِّ شيء ، ويفرّ بنفسه بعيداً.وهو الذي كان من قبلُ يملأُ الدنيا من حوله حركةً ونشاطاً.

ومن بعد هذا وذاك تتابعت الأُمور ، فيما يخص العلاقة مع الرّوم ، في الاتجاهِ الصحيح ، بحيث أدّت إلى القضاء نهائيّاً على كلِّ نفوذٍ لهم في"الشام" ، وعلى أحلامهم المُزمنة في استعادته .

ولا يُحمَدُ إلا الله ربُّ العالمين .

***

تبقى الإشارة إلى بعض الإشكاليّات التفصيليّة التي صدفتُ عن معالجتها في الكتاب لأسباب . مع علمي بأنها قد تخطرُ ببال قارئٍ حصيفٍ، وهو يتتبّع تطوّرَ البحث ، مع تقدُّمه باتجاه حلّ إشكاليّاته الأساسيّة .

فمنها وأهمُّها :

ـ هل كان معاويةُ ضالعاً في مشروع الرِّدّة ؟

السؤال يقودُنا إلى بحثٍ في النوايا . لأننا لا نجِدُ دليلاً صريحاً عليه . وذلك أمرٌ يتجنّبه المؤرّخ . بل إنّ صُدوفَه عن أخذ البيعة ليزيد لَدليلٌ قويٌّ على العكس . لكن من المؤكّد، أنّ خضوعَه الذليل لإملاءات الرُّوم سنةً بعد سنة قد مهّدَ عمليّاً للمشروع ، قصد ذلك أم لم يقصده .

ـ ثمّة أدلّةٌ كثيرةٌ جدّاً على أنّ الإمامَ الحسين (ع) كان يعرفُ ، منذ اللحظات الأُولى لإعلان خُروجه في "المدينة " ، أنّه يسيرُ في الطريق الذي سيُفضي به حتماً إلى الشهادة . **فهل معنى ذلك أنّه سار على درب الشهادةَ لأنّها كانت خِيارَه الوحيد وواجبَه** ، بوصفه الإمامَ الحارسَ للأُمّة . مُقابلَ مشروع الرِّدّة ، الذي اجتاز كافة مراحل الإعداد والتمهيد . ولم يبقَ إلا الإعلان الصريح من أعلى مُستوى ؟ ليلتقي برغبة أكثر أهل " الشام " يومذاك بالعودة إلى تحت حُكم الرُّوم ؟

هذا أيضاً بحثٌ في النّوايا .

لكن من المؤكد أيضاً أنّ شهادة الإمام المُدوّية ، ومُجملُ ما حصل في " كربلا " وتداعياته ، هي ما انتهى بالمعمول إلى القضاء نهائيّاً على مشروع الرِّدّة . بل ساقت إلى إنهاء كلّ ما بقي للرُّوم من نفوذ في دار الإسلام . ولولاها لربما كُنّا نعيشُ اليوم في عالَمٍ آخَر .

ــ دور الإمام الباقر (ع) ، على مستوى الرأي ، في ضرب السّكّة الإسلاميّة ، يستدعي مزيد بحثٍ وبيان . وما صدوفنا عن التّوسُّع فيه في متن الكتاب بمقدار ما يستحقّ ، إلا من باب الحرص على أن تكون حركةُ البحث بمثابة خطٍ مُستقيم ، يتجه من الإشكاليّة الأساسيّة باتجاه الحلّ . مع اجتناب التّعريج غير الضروري على بحث إشكاليّاتٍ تفصيليّة ما أمكن . خصوصاً حيث يُمكن معالجتها فيما بعد بنحوٍ مستقل .

المصادرُ الشيعيّة القديمة لا تولي المسألة حقّها من الذّكر . ربما لأنّ أربابها لم يكونوا مُهيّئين ذهنيّاً لتقدير وفهم أهميّتَها . وربما أيضاً لأنّ طرفها الآخَر عبد الملك بن مروان . وهو مَن هو في سُوء الصيت عندهم . بالإضافة إلى أن الواقعة قد حصلت في نطاق التّداول بين أرباب السُلطة العُليا في شأنٍ من شؤونها السياسيّة الكبرى . حيث لا ينِدُّ عنها إلا القرار . أمّا الطريقُ إليه عَبْرَ التّداول فتبقى من أمانات المجالس . لذلك رأينا أنّ راوي الواقعة الأوّل كان هرون الرشيد ، الذي يبدو أنّه إنّما عرفها بفضل موقعه السُلطوي . حيث هناك سبيلٌ آخر لحركة المعلومات ، يمُرُّ عبْرَ الصفوف الأدنى من المُتصلين برجال السُلطة ، مُخترقاً تبدُّلات الدُّول .

بعض المصادر الشيعيّة المتأخّرة تذكرُ الواقعة ، لكن من باب ذكر الفضائل . أي أنّها ليست أفضل من المصادر القديمة في تهيّؤاتها الذهنية وفي تقدير وفهم أهميّتها .

لذلك ها نحن نعود في هذه الإضافة إلى بيان مايقتضي بيانه ، وبالمقدار الذي يقتضي بيانه ، من معنى بادرة عبد الملك ، ومن ثَمّ مغزى استجابة الإمام (ع) السريعة.

أوّلُ ما ينبغي لنا أن نسوقه ، فيما يخصّ مسألة النقد/ العُملة إجمالاً ، أنّه لم تكُن كما ليس هي اليوم أيضاً ، مُجرّد أداةٍ تُسهّل عمليّة التبادل المُباشرة للسِّلع ، التي كانت من قبله ، كما يقول أهل علم الأناسة (الانثروبولوجيا) . الفرق شاسعٌ بين الذهب والفضة والنحاس بوصفها معادن ثمينة بدرجاتٍ مختلفةٍ ، وبينها حين تُسكُّ نقداً . لذلك فإنّ الدُول إذ تسكُّ نقودَها تزينها برموزها . أي بما يعكس هُويّتها وسُلطتها .

أسلافُنا المسلمون الأوّلون ، شمال شبه الجزيرة ، لم يكُن لديهم من التجربة والخبرة ما يؤهّلهم لاستيعاب مفهوم دولة ومُقتضياته ، ومنه سكُّ عُملتها الخاصّة . ومن قبلُ كان تداول النقد الرُّومي محصوراً بقُريش . ربما بفضل ماضيها البعيد ، الذي تضربُ جذوره إلى أُصولٍ بعيدةٍ غير عربيّة . لذلك لم تخطر فكرة سكّ النقد لهم ببال .

في المُقابل فإنهم تقبّلوا ببساطة أن تبقى السّكّة الرُّوميّة هي المُتداولَة في كلّ أقطار العالَم الإسلامي الآخذ في التوسُّع. وطبعاً كان انتشارُها يكبُرُ ويتّسع مع نُموّ رُقعة الدولة ، وحاجتها المُطّردة إلى المزيد والمزيد من النقد .

أوّلُ محاولةٍ لسكِّ نقدٍ إسلاميّ ، هي التي اتخذها الإمامُ علي(ع). حيث أمر أحدَ أهل " البصرة " ، ويبدو أنّه كان مُتمكّناً من هذا الفنّ ، بأن يسُكَّ عُملةً نحاسيّة كبداية (*أعيان الشيعة* :١ / ٦٥٤ . نقلاً عن *دائرة المعارف البريطانيّة*) . لكنّ المُحاولة وإدتْ قبل أن يبدأ الإنتاج الفعلي ، بسبب الشهادة المُفاجئة للإمام سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م . ومن قبلُ سبق لعمر بن الخطاب أن ضرب دراهم على الرّسم الكسروي ، عليها صورة الملك الفارسي ، والكتابة عليها بالفارسيّة . هي التي عُرفت بالدراهم البغليّة ، نسبةً إلى مَن ولي ضربَها ، المُلقّب بـ (رأس البغل). وكانت مُتداولَةً في ذلك الأوان (المصدر نفسه) . لكن بادرةَ عمر كانت ناقصة لأنّها منسوخَةٌ ، كما هو واضح .

ممّا لا ريب فيه أنّ الدولة الرُّوميّة كانت في الغاية من الغبطة والرضى من بقاء عُملتها السّائدة في كافة الاقطار الاسلاميّة . باعتبارها رمزاً أو تكثيفاً قويّاً لحضورها في دار الإسلام . بوصفها المالكة حصْراً لخلق القيمة وتحديدها وفرضِها . ماتزال باقيةً على الرغم من انحسارها السياسي.

الأمرُ الذي ربما هو الذي أطمعها في أن تفرضَ على معاوية أن يُسدّدَ إلى خزينة " القسطنطينيّة " كلَّ عوائد "الشام" . طبعاً بالإضافة إلى تهديدها العسكري ، كما عرفنا . ثم تطوّرَ إلى العمل السياسي باتجاه استعادة ماخسرته بالحرب من ملك "الشام"، عَبْر مشروع الرِّدّة الشّاملة .

من هنا رأينا الامبراطور الرُّومي جستنيان ، وقد أزعجه أمرُ عبد الملك بالمنع من تضمين الطّراز بـ " مصر " رموزاً مسيحيّة ، واستبدالِها برموزٍ إسلاميّة ، ـــ رأيناه يرُدُّ باستعمال قوّة نقده . بأن هدّد بتضمينه ، بالإضافة إلى ما عليها من رموزه ، النّيْلَ من شخص النبيّ (ص) . وهو تدبيرٌ سخيفٌ ، يفتقرُ بشدّة إلى النُّبل والكياسة السياسيّة . لكنّ قوتَه تتأتّى من ضعف الدولة الإسلاميّة في هذا النّطاق ، وافتقارها الشديد إلى النّقد الرُّومي . تماماً مثلما تعملُ الدُّول القويّة اليوم على إخضاع الدُّول الضعيفة لإرادتها السياسيّة ، باستعمال قوّتها في إنتاج العُملة المطلوبة على الصعيد التبادلي العالَمي ، التي تملكُ امتيازَ إصدارها . حتى وإن تكُن قوّةُ العُملة ناشئةٌ من نهب ثروات تلك الدُّول الضعيفة .

السؤال : لماذا لم يُفكّر عبد الملك بإصدار عُملةٍ إسلاميّة بعد أن غدا الحاكمَ المُطلق للدولة الإسلاميّة القويّة المُترامية الاطراف ؟ وبل قبلُ لماذا لم يُفكّر أيضاً بالتّحرُّر من

خطّة أسلافه الذّليلة ، بتسديد العوائد إلى الرُّوم ، مدة الاثنتي أو الثلاث عشرة سنة الأُولى من حُكمه (٦٥ ـ ٧٧ هـ / ٦٨٤ ـ ٦٩٦ م) مع أنّه ، بالنّظر لميزان القُوى بين الدولتيَن ، كان قادراً على ذلك وأكثر.

الجواب عن السؤاليَن عند العالِم بالسّرائر .

ومع ذلك فإنّ الفائدةَ من طرح السؤال هي في أنّه يكشفُ بؤسَ الرّؤيةَ لوجه المصلحة السياسيّة الرّشيدة ، عند ذلك النّمط من الطُّغاة ، مهما تكُن سياستُهم مُغطّاةً بجبروتهم على رعيّتهم . الأمرُ الذي نشهدُ له اليوم الكثيرَ من الامثال لدى أمثاله في زماننا .

فكأننا لم نتقدّم أثناء القرون الخالية خطوةً واحدةً إلى الأمام في الاتجاه الصحيح .

ومع ذلك فإنّنا لسنا نتجاهلُ لهذا الطاغية مغزى ودلالة تقبُّلَه العودةَ بالرأي إلى الإمام الباقر(ع) ، في شأن تهديد امبراطور الرُّوم . الأمرُ الذي لا نرى فيه إلا أنّ تقبّلَه هو من البقيّةَ الباقيةَ من أشلاء الفقيه النّاسك الذي كانه من قبلُ في " المدينة " . حيث كان ، خلافاً لكلّ رجال بيته ، قد اندمج بجدارة في جوّها العلمي ، الذي احتفظ بالكثير من الأصالة ، التي لم تنعُم بمثلها " دمشق " أبدا . الأمر الذي أهّله لأن يعي عن عِيان المكانةَ الخاصّةَ التي يتمتّع بها أهلُ

البيت (ع) ويعرفُ خصائصهم . ولذلك رأيناه يُبادر من فوره ، فيما يبدو، إلى استدعاء الإمام (ع) إلى " دمشق " مُكرّماً. وكان ما كان .

السؤال الثاني : ما الذي حدا بالإمام الباقر (ع) إلى تلبية دعوة عبد الملك إياه إلى " دمشق " على بُعد الشّقّة ؟ خصوصاً أننا نعرف أنّ العلاقة بينهما كانت في الغاية من السّوء ، بسبب المظالم الرهيبة التي أنزلها بالشيعة واليه على " العراق " الحجّاج بن يوسف الثقفي .

الجواب مثيلُ ما نظّرنا له من قبل في وظيفة الإمام ، بوصفه الحارسَ للأُمّة . وما يقتضيه من تقديم ما فيه مصلحتها وحراسة شؤونها على أي اعتبارٍ آخر، مهما يكُن قويّا مشروعاً. وما من ريبٍ في أنّ ما قضى به الإمام (ع) ، وامتثل له عبد الملك ، كان تدبيراً فاصلاً في تاريخ الأُمّة . كفل لها السيادةَ على جانبٍ أساسٍ ممّا تحرصُ الدُّوَل قديماً وحديثاً على الحرص عليه عدم التنازل عنه . ولو انّ سياسة معاوية وأخلافه استمرّت على ما كانت عليه من قبل طوال عقودٍ من السنين ، لربما أودت بالأُمّة إلى غير الطريق السّويّ .

ولعلّ الإمام ، إذ لبّى دعوة الخليفة ، كان يستهدي بسيرة جدّه أمير المؤمنين(ع) حيث قال ، إذ عرف بتهديد

الرُّوم معاويةَ بالحـرب : " **والله لو فعلها ابنُ الأصفر لوضعتُ يدي في يـد معاوية** " .

بل فلنقُل ما هو الأولى بنا قوله من كلّ فذلكة : **إن الأئمة عليهم السلام روحٌ واحدة في جسومٍ متعدّدة** .

ثـم (إنّ الله بالغُ أمره قد جعل الله لكلّ شيءٍ قدرا)

والحمد لله رب العالمين

مادة إضافيّة على سيرة منصور بن سرجون

القديس يوحنّا الدمشقي

(١)

المصادر الكهنوتيّة حافلة بمادةٍ خصبةٍ متنوعة على سيرته ، تعرضُ صورةً مختلفةً جداً عن تلك التي قرأناها في متن الكتاب ، استناداً إلى المصادر الإسلاميّة .

مصدرنا الأساسي في هذه المادة الموقعُ الرسمي لبطريركيّة أنطاكيا وسائر المشرق للروم الارثوذوكس . وكلُّ ما هو مُقتبَس ضمن علامتَي الاقتباس " " في المقالة فهو عنها . أما مصدر هذه فهو ، حسب ما قالته ، سيرة منصور كما كتبها بالعربيّة الراهب ميخائيل السُّمعاني الإنطاكي سنة ١٠٨٥ م ، أي بعد زهاء أربعة قرون من حياة منصور. إذن فلا غرو في أنّها عكست صورته كما نضجت واستقرّت في الدوائر الكهنوتيّة . وفي المُقابل جهلت أو تجاهلت عناصرَ سيرته فترة الفتوة والشباب بصحبة يزيد . التي بات القارئُ يعرف أنّها مختلفةٌ تماماً عن صورته الكهنوتية ، من حيث أنها بدأت بحياةٍ عمادها اللهو وطلب المُتعة . ثم آلت إلى الضلوع في مشروعٍ سياسي ، يرمي إلى إعادة المنطقة الشاميّة سياسيّاً

ودينيّاً إلى ماكانت عليه قبل الفتح الإسلامي . بينهما لقاؤه بالراهب الصقلّي (قزما) ، الذي قيل أنّه هو الذي ولي تلقينه الحساب والهندسة والفلك والمنطق والفلسفة واللاهوت والموسيقى . على ريبٍ منّا في صحّة هذا الدَّور الخلاّق للرّاهب الصقلّي . منشؤه أن شخصاً بتلك الإحاطة الموسوعيّة كان يجب أن يبرز في المجتمع الدمشقي المُتعطّش في ذلك الأوان إلى مثله ، وأن لا يقتصر حضوره على تلميذٍ وحيدٍ بين أقرانه على الأقلّ . فضلاً عن أنّنا لسنا نجِد له أدنى ذكر في المؤلفات الكثيرة لتلميذه ، مع فضله العميم عليه . والقاعدة الذهبيّة في ظلّ هذا الريب ومثله ، أنّ إيراد المعلومة التي هي موضعَ الرّيب يُرادُ منه أن يُخفي معلومةً غيرها . يعني مصدراً آخرَ لمعارف منصور. الله أعلم ما هو في الجوّ المُلتبس الذي كانت تُعاني منه "دمشق" في ذلك الأوان .

(٢)

ثمة مثالٌ آخر تنطبقُ عليه هذه القاعدة . هو أن غير مصدرٍ كهنوتي ، منها المصدر الأساسي المُشار إليه أعلاه ، يوردُ قصّةً غريبةً لعلّة خروج منصور نهائيّاً في نهاية السعي من "دمشق" إلى أحد الأديار. خلاصتها أنه عندما بدأ يدعو

إلى تكريم الإيقونات ، غضب الامبراطور الرومي (لاون) ، لِما في ذلك من رِدّةٌ باتجاه الوثنيّة ، التي حاربتها بالأمس . فكان أن زوّر رسالةً بما يُشبه خطّ منصور ابتغاء أن يوقعُ به لدى الخليفة . أدت في النهاية إلى خروجه إلى حيث انزوى في ديرٍ قصيٍّ بجبال "فلسطين" . حيث قضى بقيّة حياته راهباً بسيطاً .

القصة غير صحيحة بالتأكيد . أو ، بالأحرى ، أنّها على الأقلّ ، لا تحكى السبب الحقيقي لخروجه من "دمشق" ، بعد أن كان فيها مُعزّزاً مُكرّماً ، مرهوب الجانب برعاية الخليفة يزيد . بل تُغطّي السبب الحقيقي . الذي بات القارئ يعرفه . وما هو ، على سبيل التذكير ، إلا أنّه ، بعد سقوط الحماية عنه بمقتل راعيه يزيد ، بات تحت الخطر الشديد الوشيك من الانتقام منه ، جزاءً وفاقاً لِما كان يرتكبه على رؤوس الاشهاد ، من نيل من الإسلام عقيدةً ونبيّاً وكتاباً وشريعةً . فسارع إلى النجاة بحياته إلى أيّ أرضٍ تحتويه .

إذن ، فما تحفلُ به مختلف المصادر الكهنوتيّة ، على اختلافها، من القول أنّه اختار حياة النُسك والتبتّل اختياراً حُرّاً ، منصرفاً إلى العبادة والتصنيف في ديرٍ بائسٍ ، صابراً على

صنوف الإذلال العَمْدي لشخصه من رؤسائه ، ــ هو غير صحيحٍ على الإطلاق .

أي أنّه لولا الانقلاب السياسي الجذري ، الذي حصل في سياق تداعيات يوم " كربلا " ، وضَربَ المشروع السياسي الذي كان منصور يعملُ عليه ، لأكمل الخطّةَ التي كانت قد وصلت إلى قُبيل خطوة الإعلان الصريح . بل وربما لأصبح الآمرَ الناهي، بعنوانٍ أو بغيره ، في المنطقة الشامية على الأقلّ .

(٣)

والذي يُحسنُ قراءة المعلومات . وبالأحرى تركيب أجزائها المنثورة هنا وهناك في قصّة ، أنّ ما تُسمّيه المصادر الكهنوتيّة " **بدعةً تُحارب تكريم الإيقونات المقدّسة** " هو قلْبٌ للحقيقة . وأنّ الحقيقة هي أنّ "البدعة" ، التي لم تكُن مقبولةً في الوسط النصراني قبل أن تتبجس على يد منصور،هي تكريم الإيقونات وليس تحريمها. "**هو الذي وضع الأسس اللاهوتية للدفاع عن تكريم الإيقونات**" الأمر الذي أثار غضب الامبراطور، بوصفه حارس العقيدة . ومن هنا رأينا المجمعَ المسكوني سنة ٧٥٤ م يحظر تكريم الإيقونات . ثم

أقدم المجمع التالي بعد مدة على إيقاع الحرم على منصور "**ذا الإسم المشؤوم الذي يُعلّمُ الآراءَ المحمّديّة** " .

بل ونقول، إنّ هذه الإضافة (تكريم الإيقونات) كانت بداية التّحوُّل الصعب من (النصرانيّة) التي تذهب إلى أنّ المسيح ، وإن يكُن كلمة الله وروحاً منه، إلا أنّه عبد الله ونبيّه ، ــ باتجاه (المسيحيّة) . لذلك قاومها الإمبراطور والذين من بعده زمناً . ثم كان أنْ انتصرت بانتصار (المسيحيّة) نهائيّاً . ومن إمارات ذلك الانتصار أن المجمع المسكوني السابع سنة٧٨٧ م ثبّتَ تكريمَ الإيقونات ، وأعاد لمنصور كرامته ومجّده . أي بعد وفاته بزُهاء أربعة عقود من السنين . ومُذ ذاك بات اسمه الكهنوتي الرسمي "القديس يوحنا الدمشقي" .

(٤)

جاء في الرسالة التي بعث بها النبي (ص) إلى امبراطور الروم في "القسطنطينية" ". . . **أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام . أسلِم تسلم . يؤتك اللهُ أجرك مرتين. فإن تولّيت فعليك إثم <u>الأريسيين</u>** " .

فمَن هم أولئك "**الأريسيّون**" ؟

ولماذا يُحمّلُ النبي (ص) الامبراطورَ إثمَهم إذا هو

تولّى عن الإيمان الذي تدعوه الرسالة إليه ؟

الجواب أنْ (الأريسيين)/الآريوسيين هم من الذين كانوا على النصرانيّة الأُولى. ومن الذين وصفهم القرآن بأنهم أقرب الناس مودّةً للذين آمنوا .

والذي نفهمه من الخطاب النبوي أنهم هم الذين كانوا أتباع أُسقف "الاسكندرية" (آريوس) ، الذي كان على النصرانيّة الأُولى / الإسلام العيسوي . مُوحّداً مؤمناً بنبوّة عيسى بن مريم عليهما السلام . وأنّ المسيح إنسانٌ مخلوق . وبالتالي فإنه يمكن اتّباعه وليس عبادته. وليس منها فكرة الثالوث وأُلوهية المسيح. وأنّ أتباعه الكثيرين المنتشرين في أنحاء الامبراطورية الرومية، كانوا مُهيّأين لقبول الرسالة النبوية ، باعتبار أنهم كانوا يؤمنون بأن عيسى عليه السلام هو أحد الأنبياء . . . الخ . ولذلك حمّلت رسالةُ النبي (ص) الامبراطورَ مسؤوليّةَ الحفاظ عليهم . لكنّ الذي يبدو أنّ الامبراطور كان منهم بمعنىً . بشهادة ماجاء في جوابه على رسالة النبي إليه ، حيث كتب : " . . . **جاءني كتابك مع رسولك. وإنّي أشهد أنك رسول الله. نجِد ذكرك عندنا في الإنجيل . وإنّي دعوتُ الرومَ إلى أن يؤمنوا بك فأبوا . ولو أطاعوني لكان خيراً لهم**" .

ويُقال أنّ أصلَ هذه الرسالة من جملة محفوظات الديوان الملكي الأُردني الهاشمي .

(٤)

هكذا نكون في هذه الإضافة قد أتممنا رصدنا منصوراً في مختلف الساحات :

ـــ رفيقاً يُشاركُ يزيداً حياته اللاهية .

ـــ فأُستاذاً ومُعلّماً له بعد أن بات أهلاً لذلك.

ـــ ثم لساناً ناطقاً لمشروع الرِّدّة المُشترَك بينهما .

ـــ وأخيراً من المُنظّرين الأساسيين لتحوّل (النصرانيّة) الأُولى التي أُرسل بها السيّدُ المسيح عليه السلام باتجاه (المسيحية) ، المبنيّة على : الخطيئة الأصليّة ، تجسُّد المسيح ، صلبه فداءً للخطيئة الأصليّة ، انحصار الخلاص به بوصفه الواسطة الوحيدة بين الله والبشر .

ومن الثابت ، وموضع الإشادة في الدوائر الكهنوتيّة ، أنّ كتاباته في الثالوث هي من الكتابات المُبكّرة في تلقين هذه العقيدة للجمهور. وكذلك كتاباته الجمّة في الدفاع عن عقيدة التجسُّد . عرضهما في مصنفاته بنحوٍ مبسّط ، على سبيل تيسير فهمهما لمَن لم يكُن قد ألفهما .

وقد كرّر اهتمامه الشديد بهاتين العقيدتيَن الاساسيتيَن في صُلب (المسيحيّة) في غير كتابٍ ومقالةٍ من مصنفاته. ومن هذا وذاك استحقّ لقب "**ناقض البِدَع**" والذي "**سلّم الكنيسة المُعتقَدَ القويم**" .

وجماعُ تلك الأعمال هو سرُّ ما يحظى به من قدسيّة لدى الكنيستيَن الغربيّة والشرقيّة معاً.